المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٦ — ١ رجب سنة ١٣٦٥

القنبلة الذرية

فعلها وأثرها في الاهداف

انتقل فئة من العلماء الذين عاونوا في تأليف القنبلة الذرية الى هيروشيما ونجازاكي ليمتحنوا ما كان لها من أثر في الهدفين . ولقد وقفوا بحوثهم هذه على مقدار ما لهذه القنبلة من ذريع الفعل وقوة التحطيم ومقدار أثرها في الأهداف بنسبة بُعد انفجارها من الهدف أو قربها منه ، وحصروا جلّ اهتمامهم في قياس قدرة تحطيمها في المدن الحديثة

ان المدن اليابانية ليس فيها من قوة المقاومة ما في المدن الحديثة الأخرى . ولكن فيها بعض عمائر كانت أقوى بناء وأمتن أساساً من غيرها وبخاصة في مدينة نجازاكي ، فكانت هذه العمائر موضع البحث العلمي والفحص عن قدرة القنبلة الذرية على التحطيم والفتك . وما فتئوا غير بعيد حتى بان لهم أن قصة هذه القنبلة وقدرتها على الفتك والتهشيم مروعة الى حدّ لم تصوّروه بأدنى ذي بدء .

بدأ هؤلاء العلماء بحوثهم عن ذلك في شهر سبتمبر الماضي في المدينتين المهشمتين ووقف على بحوثهما بعثتان أخريان ، تحريراً لما وصل اليه هؤلاء العلماء من النتائج ، فوزنت كل النتائج العلمية وقيّمت ، وبحثت أجزاء من الأهداف المحطمة في معامل الولايات المتحدة ، نقلت اليها بالطائرات .

هل أن كثيراً من نتائج البحوث والأرقام التي وصل اليها العلماء الفاحصون لاتزال سرًّا مكتماً ، وعلى الرغم من ان هذه النتائج أولية من حيث الصفة فانه يرجح انها صوب لاتختلف عن النتائج النهائية شيئاً يذكر . فالقنبلة التي انفجرت فوق مدينة نجازاكي كانت من القوة والعنف بحيث أن قدرتها على رجّ الهواء كانت بقوة ضغط مقداره ١١ر٩٥٢ رطلاً على كل قدم مربعة، وكان الانفجار على ارتفاع ٥٠٠ ٢ قدم . وكان هذا الضغط تحت مركز الانفجار مباشرةً . ومعنى هذا ان كل قدم مربعة من الهواء التي كانت في مركز الانفجار أصابه ضغط مقداره ستة أطنان . وعلى بعد ٤٢٠٠ قدم من مركز الانفجار ، أي على ثمانية أعشار ميل منه كان الضغط بنسبة ٢١٦٠ رطلاً على كل قدم مربعة . وكان على بعد ميلين بنسبة ٢٠١ رطلاً على كل قدم مربعة ، وعلى بعد ٢ر٦٥ ميل ١٤٤ قدماً .

يقول علماء مكتب الطقس بواشنطن بالولايات المتحدة ان ريحاً سرعة سيرها ١٥٠ ميلاً في الساعة ، أو بعبارة أخرى ريحاً سرعتها ٣٠ ميلاً أزيد من سرعة العاصفة التي اجتاحت « ميامي » في سنة ١٩٢٦ ، قد تحدث ضغطاً مقداره ٩٠ رطلاً على كل قدم مربعة . غير أن القنبلة الذرية أوصلت على نجازاكي من ارتفاع ٢٥٠٠ قدم ضغطاً مقداره ١٣٣ ضعف الضغط الذي تحدثه ريح سرعتها ١٥٠ ميلاً في الساعة ، وعلى بعد ٤٢٠٠ قدم من مركز الانفجار كان الضغط ٢٤ ضعفاً ، وعلى بعد ميلين ضعفين ، وعلى بعد ٢ر٦٥ ضعف ونصف ضعف .

في القنبلة الذرية عاملان من عوامل الموت والتهشيم ، وفي كل من العاملين قوة تعادل قوة الآخر . العامل الأول هو « الصدمة » ، والعامل الثاني هو « الحرارة » . وكل القنابل سواء أكانت اصطناعية أم ذرية ، إنما فيها أثر من القوتين معاً . كلها تقتل وتهشم بإطلاق الطاقة إطلاقاً سريعاً . أما الذرية منها فانها تطلق القوة التي تربط بين أجزاء الكون المادي، انها تضرب الهواء أول ما تضرب بتلك القوة الفائقة ، والهواء ينقل الصدمة التي يحدثها ذلك الضرب الى الأرض . انها تحدث موجة اصطدامية أشبه بموجة صوتية عظيمة . أو بعبارة أخرى أشبه بتلك الهزة التي تحسّها إذا وضعت يدك على طرف منضدة وطرقت طرفها الآخر بطرقة ثقيلة .

يحدث انفجار القنبلة الذرية في أقل من $\frac{1}{1000}$ من الثانية . ان سلسلة الانقسام في ذراتها تبدأ وتنتهي في ذلك الجزء الوهمي من الزمن . وفي وقت الانفجار بالذات يتولد في مركزها حرارة تبلغ حوالي اربعة ملايين درجة فارنهيت ، أو بعبارة أوضح حرارة مقدارها يزيد على سبعمائة ضعف الحرارة التي يبلغ عندها الحديد درجة الغليان . غير أن هذه الحرارة تبرد بسرعة غير أنها تظل عالية جداً كبيراً في مدى مسافات كبيرة نسبيًا . وقد وجد في اليابان أن المواد القابلة للالتهاب والأجسام البشرية قد احترقت بل استحالت رماداً على بعد ميل وأزيد قليلاً من مركز الانفجار .

***

ان البحوث التي أجريت في هيروشيما ونجازاكي قد دلت على أن قدرة القنبلة الذرية على القتل وإحداث الجراح قد امتدّ الى مسافة ٦٥٠٠ قدم من مركز الانفجار . والانفجار ثلاث أحوال في التدمير . أولها موجة الصدمة ، ثم ضغط الهواء العمي وتمدده ، ثم يلي ذلك بعد وقت يسير جدًا ضغط منخفض يحدثه توزع الغازات . وهذه الأحوال الثلاث تضر أكبر الضرر بالأنسجة الانسانية . والخسائر التي أحدثها النشاط الاشعاعي ، ويقصد بها الخسائر التي تترتب على قذف خلايا الجسم باشعاعات « تمّا » ، إنما هي قليلة بالقياس على تلك التي أحدثتها قوات أخرى أطلقتها القنبلة الذرية . فان الأشخاص الذين كانوا قريبين من مركز الانفجار قد أصابهم فضلاً عن الضرر الناتج عن النشاط الاشعاعي ، جراح مختلفة أحدثها الانفجار أو الحرارة أو كلاهما .

يفعل الانفجار في الأجسام فعل ضغط عظيم بيدي جبّار قوي الأصلاب . فالاضلاع تضغط بشدة مطبقة على الرئتين فتحدث زفيراً ، يعقبه إدماء من الفم والأنف . أما في طور الضغط العالي فان أعضاء الجسم تضغط بقوة وسرعة فائقة . أما في طور الضغط المنخفض فان الغازات التي تكون في المعدة والأمعاء تنزع الى التمدّد بقوة ممزقة .

إن حرارة الأرض التي تعرّضت للانفجار في المدينتين اليابانيتين قد حسبت وعرف مقدارها ، ولكن الأرقام لا تزال تعتبر من أسرار الادارة الحربية . على أنها كانت ولا شك عالية بحيث بلغت ١٥٠٠ درجة منتجراد . هذه الحرارة ولا شك أمثال من الحرارة التي

أعرف أن الشمس ترسلها في الفضاء . ولكن حرارة القنبلة الذرية كانت من القوة والعنف بحيث ألهبت كل الأجسام السود التي كانت على العمائر والملابس السود والأجسام التي تميل الى السواد .

ان اليابانيين الذين كانوا يلبسون السواد قد أصابهم من الضرر أضعاف ما أصاب غيرهم . هذا بأن السواد أشد اجتذاباً لحرارة بين الألوان التي هي الى البياض . والذين كانوا يلبسون ملابس ميسرة بخطوط سود احترقت أجسامهم خطوطاً بحسب ذلك . ويقول الكولونيل « ورّن » Warren ان الذين كانوا يلبسون ملابس سوداً أو كان على ملابسهم صور سود ، قد احترقت جسومهم وهم على بعد ٧٠٠٠ قدم من مركز الانفجار .

ويقول الماجور « كيوكوي » أحد هيئة الحكام العسكريين في منطقة هيروشيما أن مركز الانفجار شمل مساحة نصف قطرها ميلين . وأن حقول القمح وغابات الصنوبر التي كانت في ذلك النطاق قد احترقت احتراقاً تاماً . وكذلك الاشجار في البرك القليلة الغور . وعلى هذا كانت تلك الحرارة المجتاحة التي أحدثتها القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي ، حتى أن رجلاً كان على بعد ميل ونصف من مركز الانفجار قد أصابته حروق في وجهه ، وأن الأجات التي كانت على بعد ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ قدم قد تفحمت .

عندما تنقسم ذرة من الذرات ، فانقسامها يكون أشبه بانفجار قنبلة ، إذ ترسل من حولها أجزاء بالغة منتهى الصغر ، وشعاعات تنبعث بسرعة لا يتصورها الوهم ويسمي العلماء تلك الاجزاء « نيوترونات » وأشعة دون الحمراء وأشعة « غما » وأشعة « بتا » . وما أشبهها برصاصات صغيرة تصيب ذرات الجسم وجويئاته باعثة فيها طاقة محولة في صورة حرارة قاتلة . والنتيجة المحتومة لهذه « الأعيرة » ، وبخاصة « أعيرة » أشعة « غما » وبعض النيوترونات تتمثل متباطئة في هدم بعض خلايا الجسم ، وبخاصة خلايا نخاع العظم ، والفحان وكريات الدم البيض .

ونخاع العظم هو الذي يولد خلايا الدم التي تعوض الجسم ما فقد منها . فاذا تلف ذلك النخاع وانقطع عن أداء وظيفته ، وماتت خلايا الدم بفعل الاشعاع ، فان الجسم يعجز عن أن يولد غيرها وينفد مخزونه منها . وكذلك نعلم أن نخاع العظم يحوي تلك الأجسام التي تعمل

الدم يتحلط ويتخثر . فاذا فقد الدم تلك الحصيات ، فانه يصبح من السهل أن يسيل من أوعيته الى أوعية الجسم المجاورة لها .

ربما كانت أول علامة من العلامات الظاهرة لفعل الاشعاع ظهور كدمات على ظاهر الجسم ناتجة عن الأماكن التي انفجرت فيها أوعية فأحدث انفجارها نزيفاً . وان شخصاً به هذه الأعراض خطر عليه أن تعضه بعوضة ، لأن وقف سيل الدم في مكان العضة يصبح مشكلة من المشكلات المريرة . وعند ما تموت كريات الدم البيض بأسرع مما تتولد ، يصبح التهاب الحلق أو ارتفاع ما في درجة الحرارة، اصابة قد تكون قاتلة . ذلك بأن هذه الكريات هي التي تقاوم الجراثيم التي تغزو الجسم .

إن اشعاعات « غمّا » كالاشعاعات دون الحمراء والحرارة ، تحدث ضرراً بالغاً في لمح البصر . وقد يقع الضرر قبل أن يسمع المصاب صوت الانفجار ، أي بمجرد أن يرى ومض انفجار القنبلة ، وقبل أن يحس الصدمة . وان انساناً في داخل بيت قد يصاب اصابة قاتلة بالاشعاع من غير أن يدرك أنه أصيب. وقد يستطيع أن يهرع الى خارج البيت قبل أن تصيبه صدمة انفجار شاكراً لله حسن حظه على النجاة ؛ ولكن ما يلبث أن يموت بعد أسابيع قليلة

يقول كولونيل وَرَن Warren : « ليس الموت ولا الأذى الدائم بنصيب محتوم لكل من يتعرّض لاشعاعات « غمّا » فان شخصاً صحيح البدن قوي البنية ، اذا تعرّض لهذه الاشعاعات باعتدال قد ينجو ويصح ثانية ، اذا كشف عن احتمال تعرضه لها مبكراً وأسعف بالعلاج والتمريض . ولكن متوسط اليابانيين الذين أصيبوا لم يكونوا أصحاء . بل كان أكثرهم منهوكي القوى قضى عليهم العمل الشاق وحمل فيهم السُّغب ، ولم يكن أكثرهم على علم بأن اشعاعات « غمّا » قد تنفذ حتى من بنايات الآجر (الأسمنت المسلح) . وان أي شخص على بعد ٢٠٠٠ قدم من مركز الانفجار قد يصبح صحيح تلك الاشعاعات وما دام ان ضرر الاشعاعات ضرر يتجمع شيئاً بعد شيء ، فأثره بطيء الاستبانة ، ولا تظهر أعراضه في أقل من أربعة أيام ، وقد يتأخر ظهورها فلا تشاهد إلاّ بعد شهرين من الإصابة . وهذا هو السر في ان اليابانيين اعتقدوا أن أرض الهدفين المصابين عندهم قد تشبعا بالاشعاعات من جرّاء الانفجار وأن اشعاعات ثانوية مختلفة عن الأولى تصيب الناس .

لقد تحقق الكولونيل «وُرْن» من أن الاشعاعات التي خلّفها الانفجار هي من الضعف بحيث لا يمكن أن تترك أثراً محسوساً في الأشخاص الذين بقوا في المنطقة المصابة . ولقد أكد العلماء اليابانيون هذا الكشف . ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن القنبلة الذرية هي سلاح يعمل/مدمراً بطريق « الصَّدمة » . وعندما ألقيت القنبلتان الذريتان على هيروشيما ونجازاكي حدد انفجارهما على ارتفاع بحيث يحدث أكبر تدمير ممكن . وهذا الارتفاع لا يزال سرًّا من الأسرار على ان المشاهدين من اليابانيين يقولون ان انفجارها كان على ارتفاع ٥٥٠ متراً أو حوالي ٨٠٠ قدم من سطح الأرض .

أما فعل هذه القنابل في السفن وبخاصة السفن الحربية فأمرٌ لا يمكن تحقيقه على وجه ما قبل تجربة انفجارها فوق أهداف منها على سطح الماء في هذا الصيف ، على ان لبعض العلماء نظريات فيما يمكن أن تحدثه هذه القنبلة في أهداف بحرية . وهم يقولون أن صدمة تحدثها كمية من مادة ت.ن.ت T. N. T. مقدارها ٢٠٠٠٠٠٠ طن قد تحدث في البحر موجة مدّية ارتفاعها ١٠٠ قدم من قاعدتها إلى قمتها . وتمضي على هذا مسافة ١٠٠٠ قدم من مركز الانفجار . على أن غيرهم يزعم أن مسافتها سوف تكون أكثر من ١٠٠٠ قدم ، وأن حجمها كافٍ لابتلاع أضخم السفن البحرية

أما في الموانئ القليلة الغور وهي التي يحدث في مداخلها مد بحري في العادة ، فإن مثل هذه الموجة قد تردكل مائها نحو البحر وترمي السفن إلى القاع فتقصم ظهورها . أما الصدمة والحرارة المنبعثة عن الانفجار فكافية لأن تحطم أقوى دروع السفن الحربية ، وتسلب جميع الرجال المعرَّضين لفعلها قدرة العمل . ويمكن ملافاة شيء من هذا الضرر بتفريق السفن الحربية وعدم تجمعها في بؤرة واحدة

أما فعل هذه القنبلة في المنشئات الحربية كالثكنات ومخازن المهمات والميرة ولا سيما اذا كانت مشيدة فوق الأرض وقوة مقاومتها لا تزيد على قوة منشئات نجازاكي ، فإن قوة تدميرها تكون ذريعة مبيدة للأخضر واليابس .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا »

نشيد الصحة

أنا الفيتامين « ا » مني تستمد الحيوية .. والنمو .. والقوة !
وأنا الذي أدفع عنك خطر جراثيم الأنف ، والحلق ، والرئة . واذا خلا طعامي طعامك . ضعفت مناعتك ، واضطربت غددك !
واذا بحثت عني ، وجدتني في مستخرجات الالبان ، وصفار البيض ، والكبد ، والسبانخ والطماطم ، والجزر ، والمشمش ، والمانجو .
تخير منه لاطفالك .. ولا تنساني

***

أنا الفيتامين « ب » .. بدوني لا يوجد شيء يسمى « صحة » !
فأنا الذي أهبك المناعة ضد الامراض ... وأفتح شهيتك ... وأعينك على الهضم .
وجودي في طعامك .. يمنع عنك ضعف القلب .. وضعف الاعصاب .. ويزيل عنك الامساك .. ويكثر لبن المرضعات .
وفي امكانك أن تجدني .. في قشور الحبوب ، والخبز الكامل ، والكبد ، وصفار البيض ، والبندق ، والبسلة ، والطماطم ، والسبانخ .
فاذكرني دائماً ولا تنساني .

***

أنا الفيتامين « ج » بدوني يفقد النشاط .. وتضعف العظام — واذا خلا طعامك مني أصابك الصداع ، وضعف الهضم ، ونزف لثتك دماً .
فابحث عني تجدني .. في البرتقال ، والليمون ، والجريب ، والكرنب ، والطماطم ، والبصل ، والجزر ، والموز .
وايالك أن تنساني .

***

أنا الفيتامين « د » .. لابد من وجودي لنمو العظام ، وتكوين الاسنان . وحفظ نسبة الكالسيوم في الدم ، وتنظيم افرازات الغدد .
واذا خلا طعام الاطفال مني . أصابهم لين العظام والكساح .
وأنا موجود في الزبد ، واللبن ، وصفار البيض ، وزيت كبد الحوت .
تفقد بي ولا تنسى .

***

أنا الفيتامين « هـ » .. أنا سر الصحة والشباب . وسلامة الجهاز العصبي . وأنت لو سمعت إلي تجدني دائماً في النباتات الخضر الورقة والزبد ، وزيت الزيتون ، والحمص ، والنخالة .
فاحفظ مكاناً لي على مائدتك . ولا تنسى .

فهمي عطا الله

ما هي الضويئات [1]

اطلعت في مقتطف ابريل الاخير على ملاحظات الاستاذ جريس الشرايحة على بعض نقط في مقالي « سر القنبلة الذرية » الذي نشر في عدد نوفمبر الماضي من المقتطف . وهي ملاحظات رقيقة وتاريخية . فأشكرها له عظيم الشكر .

أما الملاحظة الاولى فهي إن أول من لاحظ ان الذرة ليست بسيطة بل هي ذات قطبين موجب وسالب هو طمسن أستاذ روذرفورد . وهو محق في هذه الملاحظة . ولم يكن غرضي أن أسرد تاريخ الاكتشافات الذرية وإلاّ لبدأت بالسير اسحق نيوتن فهو أول من قال ان النور جسيمات تنطلق من الجسم المنير كالشمس أو غيرها فكأنه قال إن النور فوتونات وإنما عنيت ان روذرفورد كان أول من حوّل ذرة النيتروجين الى ذرة أوكسيجين باضافة ذرة هيدروجين اليها . يعني أنه أول من خطا الخطوة الاولى في تحويل العناصر بعضها الى بعض وهو الامر الذي خاب في محاولته الكيماويون القدماء الذين راموا أن يحوّلوا النحاس الى ذهب .

ثم أنكر عليّ قولي « إن بوهر برهن على أن الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها » .... وغضّ النظر عن بقية الجملة التي فيها ما أريد ان أنسبه الى بوهر . وهي : « إن بعض الكهارب تقيم معها أي مع الكهارب في النواة (فيتكوّن منهما النيوترون) والبعض الآخر تدور حول النواة على بُعد منها في أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس » الخ . والمراد من هذا القول إن بوهر هو أول من قرّر النظام الفلكي للذرة . فاقتضبه الاستاذ . وهو أهم ظاهرة في بنية الذرة .

ولا أخفي على الاستاذ جريس إني كتبت ذلك المقال على أثر خبر القنبلة الذرية متسرعاً لكي ينشر على الأثر . ولسوء الحظ تأخر نشره ولما كتبته لم أرجع الى مصادره لكي

(١) الضويئات ترجمة photon ومفردها ضويئة ، والفوتونات معربها ومفردها فوتون.

أثبتت منها بل اعتمدت على الذاكرة إذ لم يكن غرضي أن أحقق تواريخ أو حوادث أو أرقاماً . بل أن أشرح بقدر ما توصل اليه علمي الضئيل كيفية انحدار القنبلة . ثم صحح الاستاذ مقدار السعر وهو الحرارة اللازمة لرفع حرارة جرام واحد من الماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد . وقد ورد في مقالي خطأ كيلوجرام بدل جرام . وهو يلقي مسؤولية هذا الخطأ عليّ . طبعاً عليّ . ولكني لا أدري كم واحد من القراء يلقي هذه المسؤولية عليّ لأني لا أدري على أي شيطان ألقيها أعلى شيطان السهو أو شيطان القلم الذي تعوّد أن يتكلم بالكيلوجرامات والجرامات والملليغرامات . ولا أدري ان كان الأستاذ جريس يحسب هذا الخطأ جهلا . الحمد لله انه لم يكن خطأ في تركيب دواء لمريض .

أما مسألة عمر الراديوم والأورانيوم فلم أدقق فيها وانما كان غرضي أن أقول إنه عمر طويل . وإذا شاء الأستاذ أن يعلم ما رجحه العلماء فهو أن جرام الراديوم يصبح نصف جرام بعد ١٦٠٠ سنة ويذوب في ٢٢٨٠ سنة . واما الأورانيوم فعمره نحو ٦٧٥٠ مليون سنة[1] .

بقيت الملاحظة الجوهرية على النقطة المهمة التي هي محور ذلك المقال . فقد استنكر قولي أن الكهارب والكهيربات تتناثر وتنطلق نوترونات أي فتوثات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم .

ولكيلا يرجع القارىء الى نقده في مكانه أنقله هنا بحروفه قال : ان النور الذي نشاهده ينطلق من الراديوم معروف وخواص كل نوع من أنواعه الثلاثة معلومة أيضاً وهي ليست نوترونات كما توهم الاستاذ . فأشعة « ألفا » هي دقائق عنصر الهيليوم . وأشعة « بيتا » . وهذه أيضاً دقائق مادية هي الكترونات ، وأما أشعة « غما » فليست كأختيها جسيمات مادية وإنما هي أشعة من قبيل أشعة اكس . وهذه هي الفتوثات » انتهى .

فما هي أشعة اكس ؟ بل ما هي أية أشعة لا ترى كالأشعة الفوق بنفسجية والتحت حمراء والأشعة الكونية الخ . والظاهر ان حضرة الأستاذ يخلط بين النور والأشعة في الاصطلاح العلمي والأشعة Rays هي حاصل الاشعاع Radiation والاشعاع ستون طاقاً أو سلماً Octav كالسلم الموسيقي . ونحن لا نرى منها إلا سلماً واحداً . والبقية أي الـ ٥٩ لا نرى

(1) Extra pharmacopœia, published 1943

ومع ذلك تسمى أشعة ... لأن الرؤية ليست خاصة من خواصها بل هي خاصة في جهازنا العصبي البصري في المقلة

وأعود فأسأل ما هي الأشعة ؟

هي تموجات أثيرية (إذا صح وجود الأثير . وله بحث طويل لا محل له هنا) أو هي « جسيمات متموّجة » كما سماها السير تجايمس تجينز وبعض زملائه العلماء wavecle مختصرة من wave-particle .

وإذا لم تكن الأشعة المنظورة وغير المنظورة مادية فإذا تكون أروحية هي أم ملائكية ؟ ونحن لا نعرف في الوجود إلاّ المادة وما هي أشعة اكس ؟ وما هي الضويئات ؟ (الفوتونات) أروحية أيضاً أم مادية ؟ .

لكيلا يطوح في بال الأستاذ أبي مسحّك أنقل له ما كتبه العلامة الكبير الحجة السير تجايمس تجينز في كتابه « الكون الغامض » في صفحة ٧٠ من طبعة كمبردج سنة ١٩٣٠ . حيث كان يتكلم عن انحلال المادة أو بالأحرى الذرة قال « ... يمكننا أن نتصوّر بوضوح الجسيمين الكهربيين (البروتون والالكترون) مندفعين معاً بفعل تجاذبهما المتبادل بسرعة فائقة الى أن يتحدا أخيراً فتتلاشى تعبئتاهما الكهربائية (أي تُفني كهربة كل منهما كهربة الآخر) فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة اشعاع — هي الفوتون » .

فالفوتون إذن مادة تصحبها قوة بشكل حرارة ونور . والعبرة بالحرارة لا بالنور . الحرارة هي الطاقة والنور ظاهرة في الجهاز العصبي البصري كما قلت آنفاً . وفي مكان آخر يقول تجينز ان الالكترون ينحل حينئذٍ الى عشرة آلاف فوتون . وفي أماكن كثيرة من كتابه هذا وبعض كتبه الأخرى ينص على ان الطاقة هي في الفوتون أو هي مصاحبة له أو هو يحملها .

فالفوتون الذي انحلّ اليه الالكترون والبروتون والنيوترون أيضاً ، هو مادة ولكنه بلا شحنة كهربائية .

والنور المنظور الذي نراه — نور الشمس والنجوم ونور الكهرباء وكل نور منظور — هو تدفقات فوتونية مصاحبة طاقة بشكل حرارة ونور . والحرارة هي الطاقة بعينها .

وأشعة « جا » هي فوتونات مادية ، لا سالبة ولا موجبة ، لأنها إذا مرّت بين قطبين مغنطيسيين أو كهربيين لا تميل لأحدهما خلافاً لأشعة « الفا » التي تميل الى القطب السالب وأشعة « بيتا » التي تميل الى القطب الموجب. وكلا الفريقين ليسا أشعة نورانية. وأشعة « الفا » هي نواة الهليوم من غير الكترونيه لأنها إيجابية . وكل بروتون يدعى « الفا » أيضاً لهذا السبب . وأشعة « بيتا » هي الكترونات انفصلت عن ذرة الهليوم فتركت أشعة الفا وحدها . وإلاّ فمن أين أتت ؟

فالنور والحرارة اللذان يُلحظان في تشعع الراديوم هما أشعة جا فقط (فوتونات) وأما أشعة الفا وبيتا فليست أشعة نور وحرارة البتة إلاّ إذا التحم الفريقان فيما هما صادران من كتلة الراديوم وتنافت كهربيتهما وتحوّلا إلى فوتونات .

والغريب أن حضرة الأستاذ يوافق على قولي إن النور الذي نشاهده في الراديوم ليس إلاّ فوتونات وأما « الفا » و « جا » فما هما نور بدليل قوله معقباً على قوله المذكور سابقاً . « ولا أدري كيف يجوز لنا أن نقول إن جسيمات مادية لها وزنها الخاص كالهليوم أنها ضوئيات » .

من قال إنه يجوز ؟ حقًّا ليست ضوئيات. وما هي إلاّ نوى عنصر هيليوم تجرّدت من الكتروناتها . على ان الذي يصدر من الراديوم بعضه هيليوم صرف وهو متعادل الشحنة الكهربية . وبعضه نوى الهليوم مجردة من الكتروناتها . وبعضه الالكترونات التي انفصلت عن مجموعة الذرة . والبعض الآخر وهو الاكثر هو فوتونات تشظت اليها ذرات الهليوم .

كان كوكرفت وولطن قد حوّلا ذرة عنصر الليثيوم مع ذرة هيدروجين الى ذرتي هيليوم هكذا :

ثقل كتلة الليثيوم	٧،٠١٧٠
ثقل كتلة الهيدروجين	١،٠٠٨١
المجموع	٨،٠٢٥١
ثقل ذرتي هيليوم	٨،٠٠٦٨
الطرح . فالنقص	٠،٠١٨٣ فأين ذهب ؟

فترى أنه في تحوّل الليثيوم والهيدروجين الى هليوم ضاع من المادة ما وزنه ٠٫٠٣٠١٨٣ فأين ذهبت هذه المادة ؟ لم تضع بل ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات .

فبناءً على هذه الظاهرة التي استغربها العلماء قال اينشتين ووافقه بعض زملائه أن المادة قوة والقوة مادة كلاهما شيء واحد .

ولأن اينشتين علامة عظيم يؤخذ قوله على علاته فيضلل طلاّب العلم البسطاء أمثالي ، ويحيرهم لأنهم يشعرون أن المادة شيء وان القوة شيء آخر . لذلك لا ينبغي أن نأخذ قوله على علاّته ، بل يجب أن نقبله بتحفظ فيه .

المادة كما نعلم نقلاً وعقلاً لا تفنى بل تتلاشى كهربياتها الموجبة والسالبة وتنطلق ضوئيات مادية في الفضاء لا كهربية فيها . ماذا جرى بكهربتيها الموجبة والسالبة ؟

ذهبت أمواجاً كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) في البحر الأثيري كأمواج اللاسلكي

وإذن فقول اينشتين المادة والقوة شيء واحد لا يؤخذ على علاّته . ولا بدّ له من هذا التفسير .

نحن نفهم جيداً ما هي المادة لأنها ملموسة ونسلّم بقول علماء الطبيعة وبالمنطق العقلي ان المادة لا تذهب الى العدم ، لا تفنى ، بل تتحول من صورة الى صورة . ولكننا لا نفهم ما هي القوة أو الطاقة ؟ كل ما نفهمه منها انما هو أثرها ، وهو الحركة . فكلما رأينا جسماً يتحرّك قلنا هناك قوة تحركه . ولكن أين هي ؟ لا نرى . واذا عدنا الى تأثر هذه القوة رجوعاً الى مصدرها عن طريق المحركات من محرّك الى محرّك نصل أخيراً الى قوة الجاذبية ـ جاذبية الأجرام وجاذبية العناصر (الآلفة الكيماوية) وجاذبية الكهارب والكهيربات

فأصل القوة جاذبية بين ذرات المادة وذيراتها . المادة شيء والقوة شيء آخر . وانما المادة خلقت (ووجدت وبها سجية الجذب والانجذاب والمداورة والدوران بعضها حول بعض . التجاذب والتداور طبيعة في المادة . واذا لم تكن لها طبائع أو سجايا فهي إذن عدم. ولا كلام لنا في العدم ولا صورة له في اذهاننا .

نقولا الحداد

أبو عثمان المازني

أوّل من حرّر مسائل علم الصرف وجمعها في كتاب واحد جامع هو خير كتب هذا العلم

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عَدِيّ بن حبيب أحد بني مازن بن شيبان وقيل مَوْلى بني صَدُوس ونزل في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم ، وكان أبوه نحويًّا قارئًا . وقد نشأ المازني ودرس وارتقى في العلم وتمّ نضجه في البصرة في القرن الأوّل العباسي (١٣٢ ـ ٢٣٢) وأدرك نحو خمس عشرة سنة من أوّل القرن العباسيّ الثاني وهي مدة خلافة المتوكل (١٣٢ — ٢٤٧) إذ ورد في وفاته أقوال هي سنوات ٢٤٩ و٢٤٨ و٢٤٧ و٢٤٦ فأوسطها جميعاً نحو سنة ٢٤٧ وهي السنة التي قتل فيها المتوكل . أما ما قيل من أنّ المازني مات سنة ٢٣٠ هـ فغير صحيح لأن الروايات متضافرة على أنه جالس المتوكل، والمتوكل تولى الخلافة بعد سنة ٢٣٠ وهي سنة ٢٣٢ .

وامتاز القرن الأول العباسيّ بتحرير المسائل العلمية وبتكوّن العلوم واستقلالها وارتقائها ومنها علوم اللغة العربيّة فقد ازدحم هذا القرن بتدفّق الناس من عجم وعرب ومن بدو وحضر على موارد اللغة العربية أقاصيها وأصالبها وما يتصل بها وبأهلها من نوادر وأخبار وأنساب وعلوم يتصيدون موادها ويحررون مسائلها ويتدارسونها وينشرونها .

وكانت البصرة والكوفة حينئذٍ وهما على حدود البادية ملتقى الحضارة والبداوة ومحط العلماء والطلاب ومهبط فصحاء العرب من أهل البادية والآخذين عنهم وعن أئمة اللغة من أهل الحضر وما كان عشاق اللغة والأدب يقتعون حينئذٍ عن يلقون من فصحاء البادية في البصرة والكوفة فكانوا يبدون للاستزادة من العلم والرواية .

وقد بلغ تنافس الرواة والعلماء في الرواية والدراية أقصى حدوده لأمور كثيرة منها

(١) — أن العلم باللغة والأدب أصبح مصدراً خصباً للرزق الطالب والمطلوب إذ كان خلفاء اللغة من أهل البادية يؤجرون على الرواية والدراية . وكان رواة الحضر وعلماؤه في جاهٍ عريض وعيش رغيد بما يروون ويبينون

(٢) — وما كان من شيوع المجادل والمناظرة والمحاورة بين الرواة والعلماء في المجالس العامة والخاصة والحرص على الفوز والانتصار فيها

(٣) — الخلاف في الرواية والدراية وتعصب كل فريق لروايته ودرايته ومذهبه النحوي وحرصه على تأييده وقد بلغ الخلاف بين البصريين والكوفيين أقصى حدوده .

(٤) — الرغبة الصادقة في دراسة اللغة دراسة جيدة وإدراك حقائقها وأسرارها إدراكاً صحيحاً لأنها الوسيلة لفهم النصوص الدينية القرآن والحديث والعروة الوثقى بين العرب والعجم

(٥) — حبّ أكثر الخلفاء التسعة الأولين من بني العباس الذين ولوا الخلافة في القرن الأول العباسي (١٣٢ — ٢٣٢) العلم والعلماء وفتحهم أبوابهم ومجالسهم وصدورهم وخزائنهم لدراسة العلم وتحقيقه وترقيته وعنايتهم بذلك أكبر عناية عرفت في التاريخ .

وقد تجمعت سيول اللغة العربية وآدابها وعلومها المعروفة الى ذلك العهد أول ما تجمعت في بحر خضم واسع الارجاء بعيد الغور هو أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري المتوفى سنة ١٥٤ هـ . وكان من أشراف العرب ووجوههم وأحد القرّاء السبعة المشهورين فكان أعلم أهل زمانه وكانت دكانه ملءَ بيته الى السقف وأخذ عنه كثيرون من العلماء في مقدمتهم .

١ — أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البصري التيمي مَوْلى بني تيم من قريش المتوفى سنة ٢٠٩ هـ .

٢ — أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب القيسيّ الباهليّ البصري المعروف بالأصمعيّ المتوفى سنة ٢١٤ هـ .

٣ — أبو زيد سعيد بن ثابت الانصاري البصري المتوفى سنة ٢١٥ هـ .

وقد آلت زعامة اللغة وآدابها وعلومها ورياستها في البصرة الى هؤلاء الأقطاب الثلاثة .

وعن هؤلاء الثلاثة أخذ صاحب الترجمة أبو عثمان المازني البصري علوم العربية وآدابها وأخذ عن غيرهم كأبي الحسن الأخفش وأبي عمر الجَرْميّ وأخذ عنه كثيرون في مقدمتهم أبو العباس المبرّد والمفضل بن محمد اليزيدي ومنهم عبد الله بن سعد الورّاق والحارث بن أبي أسامة وموسى بن سهل الحرفي وأختا والدنبوري وغيرهم . وفي أخذه عن الأخفش خلاف

ومن العلوم التي تكوّنت في هذا القرن علم الكلام فقد أقبل هذا القرن والمسلمون فرق سياسية ودينية كثيرة متنابذة بما تولى عليهم من أحداث جسام مقتل عثمان وحرب علي ومعاوية ومقتل علي واضطهاد الأمويين العلويين وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وازداد هذا الافتراق حدّةً وعنفاً وتشعّباً بما كان من اضطهاد العباسيين الأمويين والعلويين وبما كان من اسلام كثير من علماء المجوس والنصارى واليهود وغيرهم من أرباب الأديان المختلفة ومحاولتهم الجمع بين عقائدهم والعقائد الاسلامية وبما كان من دراسة المسلمين العلوم

والفلسفة اليونانية ومحاولتهم التوفيق بينها وبين العقائد الاسلامية وما كان من عناية أعيان الدولة بهذا العلم وبآراء الفرق المختلفة وعقدهم مجالس المناظرة لها وانتصارهم لمذاهب منها .

وأظهر الفرق الاسلامية حينئذ فرقتا الشيعة والمعتزلة وبينهما اتفاق وافتراق ومن أقطاب المعتزلة النظام المتوفى سنة ٢٢١ هـ وتلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكلاهما أعلى أئمة علم الكلام والأدب كعباً ومن أقطاب الشيعة علي بن اسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار وهو أول من تكلم في مذهب الشيعة الامامية وعلى رأسهم علي الرضا بن موسى الكاظم أحد أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشر ومن أعلى المسلمين كعباً في العلم والصلاح .

فليس بغريب وهذا هأن الفرق الاسلامية والمذاهب المختلفة أن يكون أبو عثمان المازني كغيره من العلماء والخلفاء وأعيان الدولة معتنقاً مذهباً من مؤلاء المذاهب فقد كان من الشيعة الامامية ومن المعتزلة أخذ التشيع عن علي الرضا وعن علي بن ميثم .

يدل على تشيعه قوله : بينا أنا قاعد في المسجد اذا صاحب بريد قد دخل وهو يسأل عني ويقول أيكم المازني فأشار الناس اليّ فقال : أجبْ : قلت : ومن أجيبُ ؟ : قال : الخليفة : فذعرت منه وكنت رجلاً فاطميًّا فظننت أن اسمي رفع فيهم :

ذلك أن الائمة الاحد عشر الذين يعتقد الشيعة أمامتهم مع علي أعمامهم من ذرية فاطمة الزهراء . وأما نسبته الى الارجاء فلعلها من الافتراء فالشيعة الامامية تبرأ من المرجئة . كما قال بعض مؤلفي الشيعة .

ويدلّ على أنه من المعتزلة القدرية أنه سئل : لم قلّت روايتك عن الأصمعي ؟ : قال : رُميتُ عنده بالقَدَر والميل الى مذاهب الاعتزال فجئته يوماً وهو في مجلسه فقال لي : ما تقول في قول الله عزّ وجلّ : إنا كلّ شيء خلقناه بقدَر : قلت : سيبويه يذهب الى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاستعمال الفعل المضمر وأنه ليس ها هنا شيء يالفعل أولى : ولكن أبت عامّة القرّاء إلاّ النصب ونحن نقرؤها كذلك اتّباعاً لأنّ القراءة سنّة فقال لي : فما الفرق بين الرفع والنصب في المعنى ؟ فعلمت مراده فخشيت أن تُنْسَبَ إلى العامة فقلت : الرفع بالابتداء والنصب باضمار فعل وتعاميْتُ عليه :

يقول العلماء : إن الرفع بالابتداء أقوى من النصب على المفعولية لأن الرفع لا يُحْوِجُ الى تقدير محذوف والنصب يُحْوِجُ الى تقدير فعل محذوف يفسّره المذكور . وإنما عدل القراء السبعة بالاجماع عن الرفع الى النصب لسرّ لطيف وهو أنّه لو رُفع لفظ كلّ لوقعت الجملة التي هي : خلقناه : صفة لشيء ووقع قوله بقَدَر خبراً عن كل شيء المقيدة بالجملة الصفة ويكون الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر : وهذا

التقدير يفيد أنّ هناك مخلوقاً لغير الله ليس بتقدير ولو نصب لتفقد كل لعبار الكلام : إنّا خلقنا كل شيء بقدر : فيفيد عموم نسبة كل مخلوق الى الله .

فقراءة كل بالرفع ليس فيها تقدير محذوف غير أن فيها خللاً في المعنى . أما قراءة النصب فمع ما فيها من تقدير فعل محذوف المعنى فيها تام واضح كخلق الصبح غير أن المعتزلة يؤثرون الرفع لأنهم يقسمون المخلوقات الى مخلوق لله ومخلوق للبشر . ويقولون يزعمون هذا لله وهذا لنا . لذلك سأل الأصمعي المازنيّ عن معنى هذه الآية . ولذلك فرّ المازني من الجواب عن هذا السؤال .

ومما يذكر بمناسبة ذكر الاصمعي وانكاره القول بالقدر على المازني أن أبا زيد سعيد ابن ثابت الانصاري أحد شيوخ المازني كان يرى رأي القدر وأن المازني قال : رأيت الأصمعي وقد جاء الى حلقة أبي زيد سعيدبن ثابت الانصاري فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا منذ حسين سنة !

وكان أبو عثمان المازني جيد الفهم جيد الحفظ حاذقاً كل الحذق كثير الجد والبحث والاستقصاء وما زال مشتغلاً باللغة وبعلم الكلام درساً وتدريساً ومناظرة حتى برع براعة فائقة فيهما فصار إماماً في اللغة والنحو والأدب واسع العلم دقيق الفهم عالي الشأن فيها راقيه والى رفيقه وشيخه أبي عمر الجرمي آلت الصدارة في البصرة فكانا صدتي النحو فيها حينئذٍ بل كان المازني هو شيخ أهله فيها . وصار علماً من أعلام علماء الكلام .

وكان قوي الحجة ثقة نافذ البصيرة ، غلاباً في المناظرة ما ناظر أحداً الاّ أفحمه وغلبه وقد ناظر بعض شيوخه فأفحمهم .

قال فيه تلميذه الامام الجليل أبو العباس المبرد : لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان المازني : وقال التنوخي فيه : كان سيد أهل العلم بالنحو والغريب واللغة في البصرة ومقدمهم المشهور : وقال ابن الأثير : أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي الامام في العربية : وقال ابن خلكان : كان امام عصره في النحو والأدب : وقال غير واحد : انه عالم ثقة : وقد وصفه شيخه أبو عبيدة : بالمتدرّج النقار ولعله يريد المتروي البحاثة .

وأنا وإن لم أجد لمولده تاريخاً فيما بين يديّ من الكتب أستطيع أن أقول إنه أدرك من خلفاء الدولة العباسية هارون الرشيد وأولاده الأمين والمأمون والمعتصم وولدي المعتصم الواثق والمتوكل لانه في بعض الروايات قدم بغداد وهو عالم وكان قدومه على عهد الامين وقيل المعتصم وقيل الواثق ولم يرو أنه جالس من الخلفاء إلاّ الواثق والمتوكل .

فيكون قد أدرك الدولة العباسية وهي في قمة مجدها حضارة وعلماً وقوة وأدركها وهي

تهم بالانحدار من هذه القمة الى مهاوي الانقسام السياسيّ والعصبي بما كان من ايثار المعتصم الجند من الترك على الجند من الفرس والعرب وما تلا ذلك من فساد واضطراب في بغداد حاضرة الدولة وما كان من سوء أثره في الأقاليم.

فقد انتهى عصر المعتصم والأندلس للأمويين والمغرب الأقصى للادارسة وافريقية للأغالبة واليمن للزيادية وخراسان لآل طاهر والفرس والعرب حربٌ للدولة يكيدون لها المكايد ويتربصون بها الدوائر.

ويكون قد حاضر طائفة جليلة من أقطاب العلوم والآداب والفنون المعروفة الى عهده في الأمصار الناهضة كالبصرة والكوفة وبغداد منهم شيوخه أبو عبيدة والأصمعيّ وأبو زيد وأبو الحسن الأخفش وأبو عمر الجرمي ومنهم السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥) والنضر بن شميل (٢٠٤) والهروي (٢٥٥) ومحمد بن سلام الجمحي (٢٣٢) وأبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣) وهشام الكلبي (٢٠٦) وقطرب (٢٠٦) وثعلب (٢٠٠—٢٩٤) والنظام والجاحظ والصولي (٢٤٣) والكسائي (٢٠٧) والفراء (٢٠٧) وابن الاعرابي (٢٣١) وابن السكيت (٢٤٤) والشيباني (٢٠٦) والبخاري (٢٥٦) وابن حنبل (٢٤١) ومنهم أبو نواس (١٩٨) ومسلم ابن الوليد (٢٠٨) وأبو العتاهية (٢١١) وأبو تمام (٢٣١) ودعبل (٢٤٦) وعلي بن الجهم (٢٤٩) وحسين بن الضحاك (٢٥٠) وابن مناذر (١٩٨) والعتابي (٢٢٠) والمكوك (٢١٣).

وقد كان له بين هؤلاء العلماء الأجلاء والأدباء الأفذاذ في هذا العصر العلمي المزهر مقام رفيع، فمن أخباره معهم ما يأتي:

في طبقات الأدباء لابن الانباري: قال أبو العباس المبرد سمعت أبا حاتم يقول: قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين وكان حسن العلم بالعروض واخراج المعميّ وقول الشعر الجيّد ولكن لم يكن بالحاذق في النحو وكان إذا التقى هو والمازني تشاغل أو بادر خوفاً أن يسأله المازني عن النحو. وروي هذا الخبر عن المبرد أيضاً في السجستاني نفسه لا في الأخفش

وقال المازني: كنت عند أبي عبيدة فسأله سائل: كيف تقول: عُنيت بالأمر: قال: كما قلتَ عُنيتُ بالأمر: قال: فكيف آمُرُ منه: قال فغلط وقال: أعْنُ بالأمر: فأومأتُ الى الرجل: ليس كما قال: فرآني أبو عبيدة فأمهلني قليلاً ثم قال: ما تصنع عندي؟: قلت: ما يصنع غيري: قال لست كغيرك لا تجلس اليّ: قلت ولمَ؟: قال: لأني رأيتك مع انسان خوزي (نسبة الى مكان) سرق مني قطيفة: قال: فانصرفت وتحمّلت عليه بأخوانه فلما جئته قال لي: أدّب نفسك أولاً ثم تعلم الأدب: قال المبرد: الأمر من هذا

باللام لا يجوز غيره لأنك تأمر غير من يحضرتك كأنه ليُسْمَعْ هذا (تقول ليَسْمَعْ زيدٌ بالأمر) .

وقال المازني : كنت عند أبي الحسن سعيد بن مَسْعَدَة الأخفش أنا والفضل الرياشي فقال الأخفش : إنّ مُنْذُ : إذا رفع بها فهي اسم مبتدأ وما بعدها خبرُها كقولك ما رأيته مُنْذُ يومان : فاذا خفض بها كقولك : ما رأيته مُنْذُ يومين : فحرفُ معنىً ليس باسم فقال الرياشيّ : فلم لا يكون في الموضعَيْن اسماً فقد نرى الأسماء تخفض وتنصب كقولك هذا ضاربُ زيداً غداً وهذا ضاربُ زيدٍ أمس فَلِمَ لا تكون بهذه المنزلة ؟ فلم يأت الأخفش بمُقنع . قال أبو عثمان فقلت له لا يشبه مُنْذُ ما ذكرت لأنا لم نرَ الأسماء هكذا تلزم موضعاً واحداً إلاّ إذا ضارعت حروف المعاني نحو أينَ وكيفَ فكذلك مُنْذُ هي مضارعة لحروف المعاني فلزمت موضعاً واحداً : قيل فقال ابن أبي زرعة المازني أفرأيت حروف المعاني تعمل عملين مختلفين متضادين ؟ قال المازني : نعم كقولك قام القومُ ماشا زيدٍ وماشا زيداً وعلى زيدٍ ثوبٌ وعلا زيدٌ الفَرَسَ فتكون مرّةً حرفاً ومرةً فعلاً بلفظ واحد .

وقال المازني : حضرت أنا ويعقوب بن السكيت مجلس محمد بن عبدالملك الزيات وأفضنا في شجون الحديث إلى أن قلت : إنّ الأصمعي يقول بينا أنا جالس إذ جاء عمرو : فقال ابن السكيت : هذا كلام الناس : قال : فأخذت في مناظرته عليه فقال محمد بن عبد الملك : دعني حتى أبيّن له ما اعتنيه عليه ثم التفت إليه وقال : ما معنى بينا : قال : حين : قال : أفيجوز أن يقال : حين جاء عمرو إذ جاء زيد : قال : فسكت .

أما سبب مجالسته الواثق فهو أن مغنّيًا غنى الواثق هذا البيت :

أظلومُ إنّ مصابكم رجلاً أهدى السلام تحيةَ ظُلْمُ

فلحّنه قومٌ وصوبه آخرون فسأل الواثق ممن بقي من رؤساء النحويين فذكر له فأمر بإزاحة علله وبحمله اليه من البصرة الى سرّ من رأى . فلما أدخل عليه أكرمه وسأله عن البيت فقال : صوابه : إن مصابكم رجلاً : قال : فأين خبر إنّ : قال : ظلم : والبيت كله متعلق به ، ولا معنى له حتى يتم بقوله : ظلم : ألا ترى أنه لو قال :

أظلومُ إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحيةً فكأنه لم يُفِدْ شيئاً حتى يقول : ظلمُ : ولو قال أظلومُ إن مصابكم رجلٌ * أهدى السلام تحيةً : لما احتاج الى ظلم ولا كان له معنى إلاّ أن تجعل التحية بالسلام ظلماً وذلك محال ويجب حينئذٍ :

أظلومُ إن مصابكم رجلٌ أهدى السلام تحية ظلما

ولا معنى لذلك ولا هو نظر كان له وجه مراد الشاعر: فقال: صدقت. ثم سأله عن أهله وعياله واستبقاه ثم كنه أن يمتحن معلمي أولاده فامتحنهم ولم يجدهم صالحين. ولما أدركوا ذلك خافوه فقال لهم: لا بأس على أحد منكم. ولما سأله الواثق: كيف رأيتهم؟ قال: يفضل بعضهم بعضاً في علوم ويفضل البافون في غيرها وكل يحتاج اليه: فقال الواثق: إني خاطبت منهم رجلاً فكان في نهاية الجهل في خطابه ونظره: فقال: يا أمير المؤمنين: أكثر من تقدم منهم بهذه الصفة وقد أنشدت فيهم:

إنّ المعلّم لا يزال مُضَعَّفاً ولو ابتنى فوق السماء سماء
من علّم الصبيان أضنوا عقله مما يلاقي بكرة وعشاء

فقال له الله درّك كيف لي بك ورغب في أن يقيم معه دائماً فاعتذر.

وقال المازني كنت بحضرة الواثق يوماً فقلت لابن قادم أو ابن سعدان وقد كابرني: كيف تقول تفقتك ديناراً أصلح من درهم؟. فقال: دينار بالرفع. فقلت: كيف تقول: ضربك زيداً خير لك فتنصب زيداً؟ فطالبته بالفرق بينهما فانقطع

(والفرق بينهما أن تفقة اسم مصدر والضرب مصدر. والمصدر هو الذي يعمل عمل فعله لا اسم المصدر وذلك على مذهب البصريين لا الكوفيين فانهم يجيزون عمله كالمصدر واسم المصدر ثلاثة أنواع علم مثل فجار ويسار وهذا لا يعمل اتفاقاً ومبدوء بميم وهذا يعمل اتفاقاً ومنه (إن مصابكم رجلاً) كالمصدر من فاعل وغير هذين هو محل الخلاف) وكان ابن الكيت حاضراً هذا المجلس فقال الواثق للمازني: سله عن مسألة فقال:

ما وزن تَكَتْكَل من الفعل؟ فقال: تفعل: فقال الواثق: غلطت. ثم قال: فسره: قلت: تَكَتْكَل تقديره تفتعل وأصله تَكَتْكَيل فانقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار لفظها تكتال فأسكنت اللام للجزم لأنه جواب الأمر فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فيكون الوزن تفتل: فقال الواثق: هذا هو الجواب لا جوابك يا يعقوب: فلما خرجنا قال لي يعقوب: ما حملك على هذا وبيني وبينك المودّة الخالصة؟ فقلت: والله ما قصدت تخطئتك ولم أظن انه يغرب عنك ذلك.

ولما أراد المازني العود الى البصرة أمر له الواثق بخمسمائة دينار وقيل بألف وكتب الى والي البصرة أن يجري عليه كل شهر مائة دينار فكان يجري عليه هذه المائة كل شهر حتى مات الواثق فقطعت عنه.

قال المازني. ولما ذكرت المتوكل أمضى الي الما وصلت اليه رأيت من الجد

والسارح والآرائكاما راعي والفتح بن خاقان بين يديه وخشيت إن سئلت عن مسألة ألا أجيب فيها فلما سئلت بين يديه وصحت قلت : يا أمير المؤمنين أقول كما قال الاعرابي .

لا تقتلوها وادلوها دلوا إنّ مع اليوم أخاه[1] غدوا

فلم يفهم عني ما أردت واستبردت وأخرجت ثم دعاني بعد ذلك واستنشدني أحسن مرثية للعرب فأنشدته قصيدة ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجّع والدهر ليس بمعتب من يجزع

حتى أتيت على آخرها . ثم قصيدة نويرة اليربوعي :

لعمري وما عمري بتأمين هالك ولا جزعٌ مما أصاب فأوجعا

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة كعب القنوي :

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً كأنك يحميك الشراب طبيب

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة ابن صاذر

كل حيّ لاقي الحمام فودى ما لميّ مؤمّل من خلود

حتى أتيت على آخرها . وكان كلما فرغت من قصيدة من هؤلاء القصائد قال : ليست بشيء : ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبد الصمد بن المعذّل . قال : فأنشدني له : فأنشدته أبياتاً له (وهي أبيات هزلية سقيمة التركيب) فاستحسنها واستطابها واستطار لها وأمر لي بجائزة فكنت من ساعتئذٍ حريصاً على أن أحفظ أمثالها وأنشده إياها إذا وصلت اليه فيصلني .

وحكي أنّ أبا عثمان المازني سئل في حضرة المتوكل عن قوله عزّ وجلّ : وما كانت أمه بغيًّا : فقيل له : كيف حذفت الهاء وبني فعيل وفعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته الهاء نحو فتيّ وفتيّة : فقال : إنّ بغيًّا ليست بفعيل وإنما هي فعول بمعنى فاعله لأن الأصل فيها بغوي ومن أصول التصريف : إذا اجتمعت الواو والياء وانسابق منهما ساكن قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء كما يقال شويت شيًّا وكويت الدابة كيًّا والأصل فيهما شوْيٌ وكوْيٌ فعل هذه القضية فيل بغيٌ وواجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما يحذف من صبور بمعنى صابرة .

وقيل ان هذا السؤال كان منه هو لعلماء الكوفة في حضرة الواثق الذي طلب منه أن يسألهم .

---

(١) فلعله ساقه سوقاً شديداً — ودلاه سائقها سوقاً رفيقاً .

وقال المازنيّ سألني الأصمعي عن قول القائل

يا بئرنا بئرَ بني عَديّ لا ينزحنّ قعرك بالدِّلِيّ
حتى تعودي أقطع الوليّ [1]

فقلت حتى تعودي قليبا أقطع الوليّ وكان حقُّه أن يقول قطعاء الولي لقوله: حتى تعودي.

وممّا يدل على جودة فهمه ما رواه المبرد قال: سمعت المازني يقول: معنى قولهم إذا لم تستح فاصنع ما شئت: إذا صنعت ما لا تستحي من مثله فاصنع منه ما شئت وليس على ما يذهب إليه العوام: قال المبرد: وهذا تأويل حسن.

أمّا أدلّة اتساعه في الرواية فمنها فصائد الزناء التي قرأها للتوكل ومنها ما قاله: لم يصح عندنا أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام تكلم من الشعر بشيء غير هذين البيتين.

لكم قريش تمنّاني لتقتلني ولا وجدّك ما بروا وما ظفروا
فإن هلكت فرمنٌ ذمتي لهم بذات روقين لا يغفلها أثر [2]

وقال: قرأت على أبي وأنا غلامٌ: ترى الودق يخرج من خلاله: فقال أبو سوار الغنوي وكان فصيحاً: يخرج من خلله. فقال أبي: من خلله قراءة: فقال أبو سوار: أما سمعت قول الشاعر:

يشير بغمزة يخرجن منها خروجَ الودق من خلل السحاب

قال أبو عثمان: خلل وخلال واحدها مصدراق. وقال: حدثني أبو زيد قال: سمعت رؤبة يقرأ. فأما الزبدُ فيذهبُ جُفالاً. قال: قلت جفاء. قال: لا أعا الريح تجفله أي تقلعه.

وقال حدثني رجل من بني ذهل بن ثعلبة قال شهدت شبيب بن شبّة وهو يخاطب الى رجل من الاعراب بعض حُسّرمه وطوّل وكان للاعرابي حاجة يخاف أن تفوته فاعترض الاعرابي على شبيب وقال له: ما هذا إن الكلام ليس لمتكلم المكثر ولكن للمقل المصيب وأنا أقول: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين أما بعد فقد أدليت بقرابة وذكرت حقًّا وعظمت رغبًا فقولك مسموع وحبلك موصول وذلك مقبول وقد زوجناك صاحبتك على اسم الله وفي رواية وعظمت رَغباً.

(١) القليب البئر. الولي المطر بعد الوسمي سمي وليا لانه يلي الوسمي والوسمي مطر أول الربيع يرتوي البئر أخرج ماءها. (٢) الروقان القرنان وذات روقين عظيمة.

وسئل المازني عن أهل العلم فقال : أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة والشعراء فيهم هوج والنحاة فيهم ثقل وفي رواية الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه .

ولأبي عثمان المازني شعر قليل منه :

هيهات يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فانهنّ عواهر وأخو الصبا يجري بغير عنان

ومنه ما رواه المبرد قال : عزّى المازني بعض الهاشميين ونحن معه فقال :

إني أعزيك لا أني على ثقة من الحياة ولكن سنة الدين
ليس المعزّى بباقٍ بعد ميته ولا المعزّي وإن عاشا الى حين

أما ورعه وأخلاقه فكانا في الذروة العليا فما يدل على ورعه ما رواه المبرد قال : إن يهوديًّا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فأبى فقيل له : لِمَ امتنعت مع حاجتك وأهلك ؟ ! قال : إن في كتاب سيبويه ثلثمائة وكذا وكذا آيةً من القرآن وامست أرى أني أمكّن منها ذميًّا غيرةً على كتاب الله وحميّةً له : قال المبرد : فلم يمض على ذلك مُدَيْدة حتى طلبه الواثق وكان معه من أمره ما كان .

ومما يدل على سموّ نفسه وترفعه عن الصغائر أن عبد الصمد بن المعذّل كان قد وجد عليه من شيء أنكره المازني وكلام تكلم به فيه فقال أبياتاً يهجوه بها وأخص .

أولها بنت ثمانين بفيها لثغة شوهاء ورهاء كطين الردغة

وآخرها : فاطو حديثي دونه أن يبلغه همت أعلو رأسه فأدمغه

فبلغ ذلك أبا عثمان فلم يزد على أن قال : قوموا لهذا الجاهل بِمَ نصبت فأدمغه ؟ لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك .

***

ويتضح من الألفاظ التي دارت حولها المساءلات والمناظرات السابقة أن علم الصرف كان حينئذٍ في طور النشوء والارتقاء والاستقلال فلم يكن إلى ذلك العهد قد وضع فيه كتاب على حدة وكان أبو عثمان المازني ممنيًّا به كل العناية يفكر في مسائله ويدارس العلماء فيها ويناظرهم لتحريرها وضبطها وهم لعنايته هذه بها يسألونه وما زال كذلك حتى أفضى به ذلك

إلى أفراد هذا العلم يصنف هو أول ما ألف فيه سماه المنصف ويعرف بتصريف المازني وقد كانت بحوث عن الصرف قبل المنصف تذكر في خلال بحوث علم النحو .

وقد جاء هذا الكتاب وهو الأول من نوعه خير الكتب القديمة والحديثة في علم الصرف بإجماع العلماء وأدل دليل على ذلك أن ابن جني وهو أعلم العلماء بالصرف وفي مقدوره أن يؤلف فيه كتاباً مستقلاً يكون خير كتاب فيه آثر أن يشرح تصريف المازني لجلالة قدر الكتاب وقدر مؤلفه ثم صار هذا الشرح هو الآخر درة في تاج المؤلفات العربية بإجماع العلماء .

وقد سألت الامام العلامة اللغوي الجليل محمد بن محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي نزيل القاهرة رحمه الله أيام كانت دار الكتب المصرية في درب الجماميز قبل أن تنقل الى مبناها الجديد بباب الخلق وكنا منصرفين منها والتقينا عند جامع الحين بالقرب من ميدان باب الخلق : ما خير كتاب في علم الصرف ؟ : فقال رضي الله عنه : الشافية لابن الحاجب وخير منها شرح ابن جني على تصريف المازني ولا يوجد إلا عندي : فلما اختاره الله لجواره ونقلت كتبه الى دار الكتب سارعت الى الاطلاع على هذا الكتاب فاذا به مكتوب بخط مغربي سقيم يتعسر الانتفاع به ولما توفي الى رحمة الله تعالى أحمد تيمور باشا ونقلت كتبه هو الآخر الى دار الكتب وجدت فيها نسخة من هذا الكتاب منقولة عن نسخة الشنقيطي ولكنها بخط جميل فاذا به في الذروة العليا .

ولأبي عثمان المازني من الكتب غير كتاب المنصف المذكور كتاب في القرآن كبير وكتاب في علل النحو صغير وكتاب في تفسير كتاب سيبويه وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب الألف واللام وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج في حواشي سيبويه وهو كالفهرس لمطالبه وكل مؤلفاته جيد .

وكان يقول : من أراد أن يصنف كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح . ولعل هذا الاعتقاد هو الذي صرفه عن التأليف في النحو الى التأليف في الصرف ولو أنه ألف في النحو لجاء بأعجب العجب فقد قرأ كتاب سيبويه درساً وتدريساً مرات كثيرة .

هذا ما وسعه الوقت والجهد من ترجمة هذا العلامة الأجل الحبيب . وأرجو أن أوفق لكتابة ترجمة شارح كتابه المنصف وهو أبو الفتح عثمان بن جني .

عبد الله امين

حكم الإرهاب — Reign of Terror

في التاريخ الفرنسي :

هو الطور الاول من أطوار الثورة الفرنسية الذي استولت فيه فئة خاصة من الزعماء على السلطة ، وأخضعوا البلاد لارادتهم ، وقد رسموا لسياستهم خطة تنال كل من يأنسون فيه الميل الى مقاومة مبادئهم ، رجلا كان أو امرأة ، شيخاً أو صبياً .

وقد بدأ هذا العصر في شهر مارس من سنة ١٧٩٣ عندما أنشئت المحكمة الثورية (Revolutionary Tribunal) ، وانتهى في شهر يوليه من سنة ١٧٩٤ ، بسقوط «روبسبير» وأنصاره . وقد يسمى « الارهاب » (The Terror) من غير أن يذكر لفظة « حكم » Reign فتدل كلمة « الارهاب » على ذلك العهد خاصة . وقد يطلق هذا الاصطلاح على كل عصور الحكم التي يكون فيها شبه من حكم الارهاب في فرنسا .

٢ – السيكومتري

Psychometry

تقصي الأثر في لوحة القضاء والزمن

كيف يتم الاتصال بحوادث ماضية

وقد يسأل سائل فيقول: إذا كانت وظيفة السلعة هي أن توجد صلة فبأية طريقة إذاً تتم الصلة بحوادث تمت في الماضي السحيق ؟ فمثلا في التجارب السيكومترية الكثيرة التي أجراها العلامة وليم دنتون W. Denton وكان الوسيط فيها ولده حصل دنتون على بيانات تفصيلية هامة عن فترات جيولوجية وتاريخية ماضية . وكان وليم دنتون هذا أستاذاً للجيولوجيا ، أغرم بها من جهة وبظاهرة السيكومتري من جهة أخرى ، فتقدم لفحص السيكومتري عينات جيولوجية ، وحصل على نتائج مدهشة وهامة . ولكن كانت توجد نقطة ضعف واحدة هي أن ما حصل عليه من تفصيلات لحوادث ما قبل التاريخ كان مطابقاً لما أقرته البحوث العلمية ودونته الكتب. على أن مما زاد في غرابة الأمر أن الوسيط كان في معظم الحالات لا يعرف شيئاً عن طبيعة العينة المقدمة ، ومع ذلك كان يدلي بوصف بالغ غاية الدقة . وفي بعض الأحيان كان يعطى الوسيط قطعة من حجارة إحدى الخرائب ، فكانت الأنباء والمعلومات التي يدلي بها تتفق تماماً والواقع . وكانت التجربات فيما بعد تثبت صدق الوسيط فيما إذا حدث شك أو اختلاف لما كان يتوقع . فمثلاً حينما كان شيرمان Sherman ابن الأستاذ وليم دنتون نفسه يتقصى الأثر من قطعة حجر جيري استلجميتي من جبل طارق جعل يصف هجوماً على جبل طارق فقال : انه يرى « قنابل محرقة من الحرارة تحترق جانب سفينة » . ولم يكن أحد من الحاضرين إذ ذاك يعلم أن الأساطيل الفرنسية والاسبانية كانت قد هاجمت جبل طارق سنة ١٧٨٢ ، وأن المدافعين كانوا يطلقون قنابل احمرت من شدة الحرارة . ويراجع في ذلك كتاب « روح الأشياء The Soul of Things » لمؤلفه الأستاذ وليم دنتون .

وتكون مناظر الأحداث الماضية بالنسبة لوسطاء السيكومتري واضحة وضوح الأحداث

العادية التي يدركونها في حاضرهم بحواسهم العادية . بل ان الرؤية تكون من الوضوح بحيث يستعمل الوسطاء الفعل المضارع لا الماضي . سأل مرة مستر دنتون ولده بصدد أحد هذه المناظر قال : « أتستطيع أنت أن ترى نفسك هناك ؟ » فأجابه ولده «بالطبع أستطيع أن أرى نفسي في وضوح كأي شيء آخر أراه بعيني . وتبدو يداي الناظري ألتفت بما هي الآن (ولاحظ الاستاذ دنتون أن يدي ولدهما كانتا قذرتين إذ ذاك) . بل إني أحس بهما قذرتين كذلك . . . ويكون شعوري بهما كشعوري بشيئين مختلفين في آن واحد . فأنا هنا أحس بملابسي ، وبصدئذ أكون هناك فلا أحس بشيء » .

وإذاً يكون هناك إحساس بشخصيتين أو شخصية مزدوجة . ولكن في بعض الأحيان تكون للوسيط شخصية معينة إزاء ما يرى من مناظر ، ويبدو لنفسه كأنما يعيش بين الحوادث وكأنها جارية الحدوث بالفعل . فهو يشعر بالنسيم يهب عليه ، ويحس بالحرارة وبالبرودة ، ويسمع الناس يتكلمون ، ويشاهد المناظر وكأنما يشهد مناظر حقيقية واقعية . فهو مستطيع أن يجوس خلال شوارع مدينة اندثرت من الوجود المادي وهو مشاهد وجوه الناس وجسومهم ، متدبر النظام المعماري في المباني ، منغمر في المناشط المحيطة به ، حتى لكأنما هو يعيش فعلاً في مدينة أخرى ووسط آخر . وكل هذا يتم نتيجة لحمله سلعة في يده أو وضعها على جبهته أو مقابل ضفيرته الشمسية . فكيف تستطيع سلعة أن تجعل وسيطاً يرى مناظر ليس لها أثر في الوجود المادي ؟ أيمكن أن يكون هناك سجل تنقش فيه الأحداث الماضية جميعها ؟ ان الحقائق التي بسطناها تؤدي الى هذه النتيجة . وان السلعة المقدمة هي سبيل الوصول الى هذه المناظر والرؤى .

ولقد مرّ بنا كيف أن الوسيط يمضي متخطياً السلعة الى الأشخاص الذين لمسوها ، ولكن في تلك الحالات التي توصف فيها أحداث وأشخاص ماضية ما الذي يمكن الاتصال به ما لم يكن سجلاً أو ذاكرة ؟ ان سير آرثر كونان دويل في كتابه « حافة المجهول » يشبه الانطباعات السيكومترية في الفضاء والزمن بالظلال فوق ستارة هي في نظره أثير الكون ، ونراه يقول « ان الكون المادي كله مطمور في تلك المادة الماكرة التي تتخلله كذلك ، والتي هي من الرقة واللطف بحيث لا يؤثر فيها الهواء ولا أية مادة أخرى أخشن منه » .

ونجيء بعد ذلك مسألة الزمن فحسبنا بالزمن وقف على تتابع الأحداث وتسلسلها ، فهو مضمر في أدراكنا الحسي للظواهر ، فهل ينتفي الادراك إذا رأى من دولة زمنية الى دولة أخرى ؟ لا يخفى انه في بعض حالات الوعي الشاذة تتم في بضع دقائق الأحداث التي تستغرق في العادة سنين ، والأحلام مثل توضيحي لذلك . والظاهر أن الوعي يمكن أن يمتد فيشمل

مجالات إدراك واسعة المدى ، وربما كانت الحوادث تمر في كل مجال بسرعات تختلف وحسنا الزمني فتعدل سنة مثلاً في أحد المجالات لحظة في مجال آخر . وقال الله تعالى في كتابه العزيز «وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقال « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ولكن مع كل هذا كيف تتكون الحوادث الماضية من جديد فيراها الوسيط ؟ هل هناك شريط سينمائي أثيري يعرض في هذه الحالات السيكومترية فلا يراه الا الوسطاء ؟ إن ظاهرة السيكومتري تدفع بنا الى ذلك دفعاً . ترى هل يمكن اقتناص أشعة الضوء المنبعثة من حادث مضى فتمثل لنا الحالات من جديد ؟ تقول نظرية النسبية ان فضاء ٤ متناهٍ على الرغم من أنه غير محدود ، فشعاع الضوء المنبثق من أي نجم يسير قدماً حول الكون ويعود ثانية الى النقطة التي بدأ منها مرة في كل الف مليون سنة . وقد علق على هذا الرأي العلامة الاستاذ ادنجتون فقال : —

« يستغرق إذاً كل شعاع ضوئي منبثق من الشمس ما يقرب من الف مليون سنة لكي يسبح حول الكون كله . وبعد هذا السفر الطويل تتلاقى الأشعة كلها كما كانت عند نقطة الابتداء ، ثم تتباعد ثانية لتجول جولة ثانية ثم أخرى وأخرى ، فتلاقي هذه الأشعة يعطينا كل مرة شبحاً للشمس له جميع ميزاتها من حيث الضوء والحرارة . وكل ما في الأمر أن الجسم المادي الأصلي يكون غير موجود . وعلى ذلك يكون للشمس مجموعة أشباح تشغل الأماكن التي وجدت فيها الشمس يوماً ما منذ ألف أو ألفي أو ثلاثة آلاف مليون سنة . وهكذا

« ومن ثم كان لنا أن نتصور هذا التصور الجميل وهو ان سجلات الحوادث الماضية للكون النجمي تعود فتظهر من تلقاء نفسها في مواضع النجوم الأصلية ، وربما كان واحداً أو أكثر من السدم اللولبية الكثيرة الموجودة في السموات بمثابة أشباح لمجموعتنا النجمية . وقد يكون عدد من النجوم التي نراها في السموات أجساماً مادية على حين يكون العدد الباقي منها أشباحاً ضوئية عادت لزيارة مرابضها القديمة »

ألا يمكن في ضوء هذا التفسير أن نقول إن الوسيط يطرح طرحاً واعياً روحه التي تنطلق بسرعتها التي تفوق سرعة الضوء بمراحل ، فتدرك — مستهدية بالأشعة الضوئية المنبعثة من السامة — الأشعة الضوئية الأخرى الممثلة للحوادث الماضية ، وتتلقاها في نقطة ما من الفضاء والزمن ، فترى الحوادث وكأنها تجري من جديد ؟ على أنه اذا أردنا ألا نحتمي ببعض الآراء المبنية على نظرية النسبية فيتحتم علينا أن لا ننسى أن العقل يتخطى بصوره

حدود الزمان والمكان ، وأنه ليس مقيداً بالمخ . ولكن لما كان الشعور مرتبطاً بالأعضاء المادية فانه يصعب على الماديين كثيراً أن يدركوا وجود عقل غير مجسد أو شخصية غير مجسدة .

فوق شاشة الفضاء والزمن

لا شيء أعجب ، ولا أصدق في الوقت ذاته ، من أن الحوادث الماضية قد تتركز أو تنطبع في مكان ما ، فيتأثر بها العقل الحساس ويحس بها وكأنما هي تجري من جديد . وترى أمثلة لذلك منثورة في الكتب الروحية ، وأخرى يتندر بها الناس في كل زمان ومكان . وقد حدثتنا التلغرافات الخارجية عما تم في بلدة هيروشيما اليابانية التي دمرتها القنبلة الذرية ، وكيف رأى الناس أشباحاً للجسور والمباني المهدمة تقام ثم تختفي هي ومن حولها من الناس ! وكل ذلك ولا شك رؤى سيكومترية يلعب فيها المكان دور السلعة . وفيما يلي حادثة يصح اعتبارها فذة في هذا الصدد . وقد نشرت لأول مرة في كتاب ظهر سنة ١٩١١ وأسمته « حادثة An Adventure » ألفته سيدتان انجليزيتان لم تفصحا في طبعاته الأولى عن اسميهما ولكنهما أعلنتا اسميهما في الطبعات التي ظهرت أخيراً وهما مس آن . أ . موبرلي ومس الينور ف . جوردين Miss Eleanor F. Jourdain . فأما الأولى فهي ابنة الدكتور موبرلي الذي كان عميداً لكلية ونشستر Winchester ثم فيما بعد أسقف سالسبوري Salisbury ، وكانت مس موبرلي نفسها رئيسة كلية سان هيو St. Hugh بأكسفورد . وأما الثانية فهي ابنة القس فرانسيس جوردين ، وهي حاصلة على درجة ماجستير M. A. في الآداب . وعلى الدكتوراه كذلك من جامعة باريس ، وكانت وكيلة كلية سان هيو ثم رئيسة لها فيما بعد لما استقالت مس موبرلي . ويكفي هذا المختصر التاريخي للدلالة على أن السيدتين راويتي ذلك الحادث القذ من الفضليات المثقفات ، وان ثقافتهما تؤكد لنا أن الحادث صحيح صادق غير مختلق .

ففي أغسطس سنة ١٩٠١ زارت مس موبرلي ومس جوردين البتي تريانون Petit Trianon في فرساي ، وسارتا فيما ظنتاه الطريق العادي ، واذا بهما تريان أو خيل اليهما أنهما تريان معالم المكان التاريخية العادية . ومع أن السيدتين لم تدركا طبيعة الحدث غير العادي الذي يجري أمامهما فانهما كانتا في حالة وعي شاذة لأنهما شعرتا في فترات كأنهما تريان شيئاً غير حقيقي . فمس جوردين تقول : « أحسست كأني أمشي وأنا نائمة » . وتقول مس موبرلي : « وحتى الأشجار بدت وراء البناء كأنها منبسطة ولا حياة فيها فكأنما هي صورة غابة نقشت فوق نسيج موشى . ولم تكن هناك ثمة تأثيرات للضوء والظل حتى ولا نسيم يحرك الأشجار »

وحدث بعد ذلك بسنتين أن زارت إحداهما ثانية البتي تريانون فأدهشها أن ترى لمكان معالم غير تلك التي كانت رأتها هي وزميلتها سنة ١٩٠١ ، وقد دفعا البحث على أن السيدتين رأتا البتي تريانون في مظهره أيام الملكة ماري الطوانيت . ويمكن تقدير قيمة البينة التي يقدمها هذا الحادث من قراءة الكتاب الذي ألفته السيدتان .

تقول مس جوردين : « رأينا الى اليمين بعض مباني مزرعة بدت خاوية مهجورة ، ورأينا هناك آلات زراعية ومن بينها محراث . ووقف هناك شخصان في ملابس رعية (خضراء الون) وقد طلبا الينا أن نسير قدماً . وأذكر اني أعدت سؤالي لأنهما أجاباني بشكل يكاد يكون آليًا . ورأيت كذلك كوخاً قائماً بمفرده . ووقفت في الممشى المؤدي الى الباب امرأة وفتاة ، وقد لفت ملابسهما نظري بنوع خاص ، فقد تدلى من حزام كل منهما منديل أبيض معلق ، وكان جلباب الفتاة طويلا يبلغ الكعبين مع انها كانت في حوالي الثالث أو الرابع عشر . ورأيت المرأة تناول الفتاة ابريقاً . وبلغنا ممشى يقطع طريقنا ، ورأينا أمامنا بناء مسقوفاً ذا أعمدة . وجلس على السلم رجل على كتفيه عباءة سوداء ثقيلة وفوق رأسه قبعة مسترخية . وأدار الرجل في تؤدة وجهه الينا فرأينا فيه ندوب الجدري ، وكان الوجه شديد السمرة ، ثم ملامحه على الشر ، فاستشعرت شيئاً من النفور منه . وفجأة سمعنا برجل يجري وراءنا وينادينا قائلاً سيدتي ، سيدتي . فلما التفتنا اليه طلب الينا أن نسير في الاتجاه الآخر ، وكان كلامه بلهجة غير مألوفة . وكان الرجل ينتعل حذاء ذا مقبض (ابزيم) فسلكنا طريقاً ضيقاً الى أن اعترضتنا فجأة الحديقة الانجليزية التي تواجه البتي تريانون . وكان الطريق خالياً . ولكن لما اقتربنا من الافريز أذكر أني سمعت ذيل ثوبي كأني أفسح الطريق لشخص مجاوري . وبينما نحن فوق الافريز خرج علينا صبي من باب بناء آخر في نفس الشارع ، وما زال يرن في أذني صوت إغلاق الباب في عنف ، وقد أشار علينا أن نتعطف الى الممر الثاني . فلما رآنا نتردد ابتسم ابتسامة الساخر وعرض علينا أن يدلنا على الطريق » .

وكتبت مس موبرلي بياناً آخر مستقلاً تصف ما رأته في زيارتها البتي تريانون، واتفقت مع مس جوردين فيما رويته وزادت انها رأت سيدة . وتقول مس موبرلي عن هذه السيدة « إنها رأتنا ، ولما مررنا بالقرب منها وعن يسارها التفتت الينا وحدقت فينا ، فتبينت وجهها كله ، فاذا به لم يكن وجه شابة . ومع انها كانت جميلة فانها لم تجذبني اليها ! » .

وفي ضوء البحوث التي أجريت بعد ذلك ظهر ان هاتين السيدتين قد رأتا فعلاً البتي تريانون في عهد ماري انطوانيت .

ومن هذا يتضح أن سيدتين استطاعتا في وضح النهار وهما في صحة جيدة وحالة عادية أن يشهدا بأن هذه الأحداث قد تمت كأمر واقع لا كصور ذهنية انتقلت من شخص لآخر ، لأن ما رأته إحداهما لم يتفق مع ما رأته الأخرى في جميع التفصيلات والوجوه . وعدا هذا فان ما رأتاه من الأحداث يتصل بشخصيات مشهورة في التاريخ ، وانه يمكن التأكد من صحة الوقائع بالرجوع الى البيانات التاريخية المدوّنة . ولم تكن تلك البينات قد اضطربت أو تغيرت منذ أن جمعتها الجمعية الوطنية إلى أن بحثت فيها مس جوردين سنة ١٩٠٤ فأزالت الأربطة التي كانت لصقت بالملفات لطول الزمن وقلة الاستعمال .

وقد علق سير آرثر كونان دويل على تلك الحادثة في كتابه « حافة المجهول » فقال « إن كل من يدقق فيما روته هاتان السيدتان ، ويلاحظ أوجه الشبه كما يلاحظ كذلك أوجه الخلاف الهامة لا يستطيع إلاّ ان يحكم بصدقهما ، وإلاّ ان يعترف بأن ما رويانه ليس خيالاً ولا ايحاء ولا تصوراً كاذباً (اي هلوسة) . أما كيف تمّ هذا وبأي انكسار روحي قد سقط سراب هذا الماضي على لوحة الحاضر فمسألة عسيرة الحل » وهي طبعاً عسيرة الحل في ضوء المادية التي تطغى على بعض العقول . ويخيل الينا ان هذه الحادثة سيكومترية مع فارق واحد هو ان السلطة التي استخدمت في هذه الحالة كانت سكناً أو مكاناً .

وتدفعنا دراسة هذه الحادثة ومثيلاتها الى القول بان العنصر المكاني مهم من حيث أنه العامل المسبب لهذا النوع من الرؤية . وكما هي العادة في الحالات السيكومترية من وجوب وجود سلعة ، فان السيدتين ما كانتا تريان ما رأتا لو لم تزورا هذا المكان بالذات . وفي أوائل التعقيب الذي ختمت به ترجمتي لكتاب « على حافة العالم الآثيري » ذكرت قصة فرنسيين ضلاّ الطريق في ذلك المكان فبدت لهما مشاهد ذلك الماضي القديم ، وقالا إنهما رأيا سيدة على جانب كبير من الجمال جالسة في منزل أنيق وسط حديقة تشبه حدائق العصور الوسطى في نظامها وتنسيقها . وأنهما رأيا كذلك رجلاً أصهر الوجه يلبس معطفاً . ثم اختفى المنظر فذعرا وما زالا سائرين حتى اهتديا الى الطريق العام بعد تعب شديد . ويؤكد هذان الرجلان أن السيدة التي رأياها هي الملكة ماري انطوانيت نفسها ، وأن ذلك الرجل هو الكونت دي فودفيل .

ومما يؤيد وجود حالة خاصة لهذا المكان الذي نحن بصدده ما ذكر في تذييل أضيف في الطبعة الرابعة لكتاب « حادثة » سالف الذكر . فقد حدث لرجل وسيلة وولدهما الفنان سنة ١٩٠٨ في فرصايل نفس ما حدث لكلٍّ من مس مورلي ومس جوردين ، ولم يكن أفراد هذه الأسرة قد عرفوا إذ ذاك شيئاً مما روي في كتاب « حادثة » لأنهم لم يقرأوا

ذلك الكتاب إلاّ سنة ١٩١١ ولا تفسير لهذا الحادث وأمثاله إلاّ بأنه إما أن يكون هؤلاء الذين شاهدوه تنطرح أرواحهم من جسومهم ، وهم لا يفهمون هذا الطرح ، فيرون جزءًا من عالم الروح . وإما أن سكان عالم الروح هؤلاء يبعثون بالتلبثي صوراً فيلتقطها الوسطاء الموهوبون من روّاد هذا المكان الذي كان مسرحاً لحوادث خاصة . وهؤلاء الوسطاء أنفسهم قد لا يعلمون أنهم وسطاء .

السيكومتري والروح

يرى الأستاذ بوزانو Prof. Bozzano أن التفسير الروحي للسيكومتري هو أقرب التفاسير الى العقل ومنطق الامر الواقع . وهو يستشهد على ذلك بمثلين ذكرهما في كتابه « تأثير غير المتجسدين في حياة الانسان » وقد أصدر معهد لندن الدولي للبحوث الروحية هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وفيما يلي خلاصة ما ذكره في المثلين وما استخلصه منهما : —

(١) فأما المثل الأول فهو تلك التجربة الشهيرة التي أجراها الدكتور أوستي Dr. Osty مع الوسيطة مدام موريل Mme. Morel بصدد اختفاء رجل عجوز يدعى لِيرازل Lerasle في ضياع البارون جوبرت Joubert وقد ذكرها الدكتور أوستي في كتابه « القوى غير العادية في الانسان » .

وخلاصة الحادثة أنه في يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٤ كتب ناظر مزارع البارون جوبرت الى الدكتور أوستي يخبره باختفاء هذا الرجل منذ يوم ٢ مارس ، ويقول انهم لم يعثروا عليه مع ما بذل من بحث طويل مجهد . وقد جيء للدكتور بوشاح للرجل فناوله الى مدام موريل طالباً اليها البحث عن صاحب الوشاح . فقالت وهي في نومها المغناطيسي « أرى رجلاً ملتقى مغمض العينين كأنه نائم ولكنه لا يتنفس ... انه ميت ... انه ليس في فراشه بل فوق الأرض ... والأرض رطبة ندية جدًّا . منبسطة غير مزروعة ... أرى ماء غير بعيد ... وشجرة كبيرة ... وهيئاً آخر كبيراً جدًّا قريباً منه ... شيئاً كالادغال ... انه غابة ... » وتلا ذلك وصف للطريق الذي سلكه الرجل ، ثم لمظهر الرجل نفسه ولشكله . قالت « انه أصلع طويل الأنف ... وفوق أذنيه شعر أبيض قليل وكذلك في مؤخر رأسه ... انه يلبس رداءً طويلاً وقميصاً ناعماً ... يداه مطبقتان ... أرى إصبعاً من أصابعه وقد أصيب ... الرجل متقدم في السن كثيراً وهو مجمد البشرة ... شفتاه متدليتان ، وجبهته مجعدة وعريضة ... انه ينام على جنبه الأيمن وقد انثنت ساقه تحته » . وقد كرّرت وصف الساق المنثنية تحته ثلاث مرّات .

ووجدت الجثة فعلاً في المكان الموصوف ، وكانت الأرض منبسطة ولكنها كانت في هذه الجهة منحدرة الى جدول هو الوحيد في ذلك الجزء من الغابة . أما ذلك الشيء المكسر فقد كان صخرة ضخمة غطاها العشب . وكان وصف الجثة صحيحاً كذلك ما عدا قولها « انه ينام على جنبه الأيمن وقد انثنى ساقه تحته » . ويقول الأستاذ بوزانو انها ذكرت ثلاث مرّات ، وانها في المرة الثانية قالت كذلك « انه لم يسر في الغابة مسافة طويلة . انه يدمر بألم . أراه ينام على الأرض ثم يموت . . »

هذا الخطأ الذي وقعت فيه الوسيطة ثلاث مرّات متتاليات مضافاً اليه الجثة الأخيرة يلفت النظر ، فاذا نحن قلنا ان التقصي تمّ بظاهرة الرؤية البعيدة المدى أو الرؤية عن بعد فاننا لا نستطيع التعليل لغلطة الوسيطة التي وقعت فيها ثلاث مرات متتاليات ، وهي الغلطة الخاصة برؤيتها الجثة راقدة على جانبها الأيمن وقد انثنت إحدى الساقين تحتها ، على حين انها كانت منبطحة على ظهرها والساقان ممدودتان . وتقطع هذه الغلطة بأن الحالة لا يمكن البتة أن تكون حالة رؤية بعيدة المدى أو رؤية عن بعد . وللسبب عينه يتحتم استبعاد مسألة طرح الجسم الروحي للوسيطة ما دامت قد وصفت الجثة في وضع ينافي الواقع ، فهي من ثمّ لا تكون قد رأتها بعين الروح المطروحة . وللسبب عينه كذلك لا بدّ من استبعاد فكرة انطباع الحوادث في السلع ، وخاصة لأن الحادث وقع والوشاح بعيد عن صاحبه . ولا بد من استبعاد حدوث تلبثي من الاحياء الموجودين من أصدقاء الرجل المتوفي وأقاربه لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مصيره .

لم يبقَ إلاّ أن يكون هذا الوشاح قد مهد السبيل لايجاد نوع من الاتصال بين روح المتوفي وبين الوسيطة ، ولا يبعد أن يكون الروح قد أثر بالتلبثي في عقل الوسيطة فطبع فيها سوراً يراد منها كشف مأساته المحزنة لكي يعثروا على جثته . واذاً تكون غلطة الابصار التي وقعت فيها الوسيطة ثلاث مرات قد استحالت برهاناً قاطعاً يؤيد التفسير الروحي لهذه الوقائع ، لأنه اذا سلمنا بأن مخبر الوسيطة بالوقائع هو روح المتوفي استقام كل شيء ، وأدّى بنا المنطق الى القول بأن الصورة المخطئة التي رأتها الوسيطة قد انتقلت حقيقة من المتوفي باعتبارها آخر ذكرياته في اللحظة الخطرة حين اضطجع بجانبه الأيمن على الأرض فنام فمات . وهذا معقول ومنطقي للاعتبارات الآتية : فأولاً لأن النوم على الجانب الأيمن هو الوضع الطبيعي الذي يختاره أي شخص يستعد للنوم . وثانياً لأن حركات الاحتضار التشنجية قد تدفع الجسم الى الاستلقاء على الظهر ، أي الى الوضع الذي فيه يكون الجسم في حالة لا تزال الغابة التي نقول بها قواعد على المكانيكا . وحدث أن تيبس الجسم وهو

ذلك الوضع بعد تلك الحركات التشنجية . ولا شك أن الرجل كان في حالة إغماء وهو يحتضر فلم يعد ما تمّ لجسده عند انسلال روحه ، ولذلك لم يطبع في ذهن الوسيطة الا صورة لجسمه وهو نائم على جانبه الأيمن وساقه منثنية تحته ، أي انه أرسل صورة صادقة لآخر مشاعره وذكرياته الأرضية . وإذا نحن قبلنا هذا التفسير للوقائع فان غلطة الوسيطة التي تكررت ثلاث مرات تكون قد انقلبت برهاناً يؤيد الرأي القائل باحتمال تدخل خارجي في كثير من الحالات السيكومترية .

هذا هو ما استخلصه العلامة بوزانو من هذه الحادثة . على أننا من جهة أخرى لو أخذنا بالرأي القائل بالطرح الروحي لأمكن أن نقول ان الوسيطة لما انطرحت روحها وهي في الغيبوبة المغناطيسية متقصية أشعة الضوء في الفضاء والزمن ، وقف تقصيها عند نقطة سقوط الرجل على الأرض وانثناء ساقه تحت جنبه الأيمن .

(٢) وأما المثل الثاني الذي ذكره الأستاذ بوزانو ليدعم به الرأي الروحي فحادث أثار ضجة كبرى عند حدوثه . وراويه هو رجل المال الاسترالي الشهير مستر هيو جونور براون Mr. Hugh Junor Browne الذي مني بفقد ولديه حين غرق بهما يختهما خلال نزهة بحرية حول هوراطيو ملبورن . وخلاصة هذا الحادث أنه لما تغيب الولدان جزع أبواهما جزعاً شديداً ، فقصدا الى الوسيط الروحي المعالج الشهير جورج سبرج G. Sprigg يطلبان مساعدته في العثور عليهما . وفيما يلي بيان مستر براون عن الذي تمّ قال : —

«قبل الثامنة صباحاً بقليل حضر مستر سبرج . ولما وقع في الغيبوبة تناول يد زوجتي وسألها إن كانت ذهبت الى البحر فأجابته بأنها لم تذهب فقال إنه يخيل اليه أن ما يعتريها من كآبة له علاقة بالبحر ، وانه حين يخيم الليل بهدوئه على الكون يتناوبها الحزن والضجر وأنها تطلق الدمع مدراراً . (وقد كان هذا صحيحاً لأن زوجتي حين لم يعد ولدانا في ميعادهما المنتظر توجست شراً) ومضى الوسيط يقول ان المسألة كلها تتعلق بالبحر .

«ولأول مرة أشرت اشارة خفيفة الى ما يشغل أذهاننا فسألته عما اذا كان مستطيعاً أن يحدثنا عن خسارة حدثت لنا في البحر . فقال وهو في غيبوبته إنه لا يستطيع أن يبحث عنهما في عالم الروح ولكن اذا أعطي شيئاً يستطيع منه أن يتقصى أثرهما فقد يصل الى معرفة شيء عنهما .

« وعندئذ جئت بمذكرتي الجيب لولديّ ووضعتهما في يد الوسيط فقال على الفور انه يراهما في قارب صغير . وان لقاربهما قلعاً كبيراً وآخر صغيراً ... (وكان هذا صحيحاً) ...»

ومضى الوسيط يدلي ببيان دقيق يتضمن وصف ما حدث للقارب حتى غرق بمن فيه .

وتحرّى الوالد دقائق هذا الوصف فيما بعد فاتضحت له صحتها . ثم هيمن روح أحد الوالدين على الوسيط الواقع في الغيبوبة وتحدث بفمه مدليًا بتفصيلات أخرى لهذه المأساة ، ذاكرًا بين ما ذكر حادثًا محزنًا هو التهام أحد كلاب البحر ذراع أخيه . وقد تحقق هذا الحادث بشكل عرضي غريب . ذلك أنه قد وجد في جوف أحد كلاب البحر المصيدة في تلك الجهة تلك الذراع المبتورة مع قطعة من قماش صدرة القرين وساعته وبعض النقود . ووجدت عقارب الساعة واقفة عند التاسعة ؛ وهي الساعة التي قال الوسيط إن كارثة الغرق قد وقعت فيها .

تلك هي خلاصة المأساة . ويلاحظ أن الوسيط حين أمسك بيدي مسز براون ، أم الغريقين ، لم ينجح في تعرف أي شيء يخص ولديها إلى أن أعطي مذكرتي الجيب . ومن ثم يتضح أن عمل السلعة التي تعطي للوسيط ينحصر في إيجاد جوّ من التوافق الروحي بين الوسيط وبين صاحب السلعة حيًّا كان أم ميتًا . وتدحض هذه الحادثة رأيًا طالما ردّده النقاد وهو الرأي القائل بأن الوسطاء يستخلصون بالتلبثي من عقول الأهل والأقارب والأصدقاء والمعارف ما يكون فيها من معلومات ، فيتصوّر الوسطاء خطأ أنهم قد اتصلوا بالموتى . فالحادث المروي هنا يدحض هذا الرأي دحضًا تامًّا ، لأنه إذا كان الوسيط حتى بعد إمساكه يد مسز براون (الأم المنكوبة) لم يستطع البتة كشف شيء خاص بولديها فإن هذا يدل على أنهما لم تكن عرفت شيئًا عنهما ولا عن ظروف مأساتهما ، لا بالتلبثي ولا بغير التلبثي ، ولكن الوسيط كشف كل شيء بمجرد لمسه مذكرتي الجيب ، فكيف وصل الوسيط إلى تلك المعلومات ؟

لو أننا مضينا نتحرّى الأمر بالأسلوب العلمي الذي تنحي فيه بالتدريج الفروض غير القابلة للتدعيم لوصلنا إلى الآتي : —

إذا سلمنا بأن الوسيط لم يستخلص باستخدامه مذكرتي الجيب دقائق تلك المأساة التي حدثت « بعد » أن ترك الشقيقان منزلهما آخر مرة ، وبالتالي « بعد » أن استعملا المذكرتين آخر استعمال ، وإذا سلمنا بأن ملابسات الحال تدل على أن الوسيط ما كان يمكنه أن يستخلص هذه الحقائق من عقلي الأخوين ، وإذا سلمنا كذلك بأنه لا يستطيع استخلاص ذلك من عقل أي انسان حيّ لأنه لم يرَ أحد غرق القارب — إذا سلمنا بكل هذا فالنتيجة المنطقية الوحيدة هي أن مذكرتي الجيب قد ساعدتا على خلق جوّ من التوافق الروحي بين الوسيط وبين الشخصين غير المتجسدين اللذين استعملا يومًا ما وهما متجسدين تينك المذكرتين ويؤيد ذلك ما فاه به الوسيط وهو في غيبوبته ، وما قاله أحد المتوفيين بفم الوسيط لما هيمن عليه .

ولا يفوتنا أن المعلومات المعطاة بعد هذه الهيئة تضمنت أحداثاً هامة ، أهمها قضم كلب البحر ذراع احدى الجثتين .

ففي ضوء هذين المثلين الأخيرين وما يشابههما من مثل كثيرة نستطيع أن نقول إننا اذا حللنا ظاهرة السيكومتري تحليلاً دقيقاً فانه لا هملك منتهٍ بنا الى نسبة هذه القوى فوق المدركة الى أصل روحي ، وذلك فضلاً على انعدام أية وسيلة أخرى مادية يمكن بها تفسير هذه الظاهرة .

احمد فهمي أبو الخير
مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف

الفرنجة — Franks

(١) ذكر الفرنجة أولا الكاتب الروماني « أميانوس مرسلانوس » Ammianus Marcellianus سنة ٣٨٨ . ويطلق اسم الفرنجة على كل القبائل الجرمانية . وقد حقق أنها كانت تتكلم لهجات متشابهة ، وخضعت في أنظمتها لعادات متشابهة . وكانت كل قبيلة مستقلة استقلالا سياسياً .

وفي أوائل القرن الخامس اتحدت هذه القبائل خمس فرق أشهرها « الخاتية » Chatti و « الرفوارية » Ripuarian و « السالية » Salian or Salic واستمرت الفرقة الثالثة أمامي الرين السفلى ، وقضت بقيادة كلوفيس Clovis على النفوذ الروماني في بلاد الغال ، وأقامت هناك ملكا عظيما ، وأطلق اسم القبائل على البلاد فسميت فرنسا France

(٢) في الحروب الصليبية سمي العرب والشرقيون الاوربيين الذين زحفوا على البلاد المقدسة « الفرنجة » تعريباً لفظ Frank بغير تمييز .

الحياة والذرة

أو

الخلود الجديد

تجمت أبحاث الذرة للشاعر آفاقاً جديدة للتأمل . . . ترى هل يكون البعث بعد الموت بالفناء ذرات الاجسام مرة ثانية ؟ !

أنا حيٌّ في رحاب العيش أحيا بكياني
فإذا حان تمامي خالدٌ طيَّ الزمانِ

في نطاق القبر أحيا جيفةً . . لا من هوانِ
من سديد الجسد البالي مضى في سريانِ
وبخار النتن المكروه ثاوٍ في المكانِ
وحُطام الجثة الملقاة شوهاء المعاني
أبعث الدود وأغنوه دمائي وجناني
وهو ينمو مثلما يُنشيي جنيناً أبوانِ
إن للدود حياةً . . . إن للدود أماني !

فترة تمضي دهورٌ وشهورٌ وثوانِ
فإذا الكلُّ توارى وتلاشى بأوانِ
لا حياةٌ لا رفاتٌ لا دمٌ في شريانِ
قد تلاشت رمةٌ تفرى ودودٌ ثم جانِ
كل شيءٍ فيَّ أوصالٌ وقلبٌ وبدانِ
مسحت كفٌّ عليه بفناءٍ غير فانِ . . . !

لكنَّ انظر . . . بشعاع العلم فضّاح المعاني
ها هنا بضع ذرّاتٍ تصدّت للزمانِ
هائماتٍ في رحاب الكون ما بين الرّحانِ
تلكم الذرات أحياءٌ توارت عن عيانِ

بل هي الدرة أشواقٌ وأحداثٌ تُعاني
وهما قلبٌ معنى أبداً في خفقان
تامهُ صبٌّ عميدٌ حوله في دوران
من لظى الوجد استطارت كهرباءً في الكيان
هي تَوّارُ شعاعٍ مستترٍ المنوان
كُتِمتْ نار جواه في فؤادٍ غير ونان
إنّ تقصّدْهُ بسهمٍ هبّ مستشرى الجنان
نافثاً هولاً رهيباً . يا طول البُرَكان !

صُدّعتْ أركانه ما بين لمعٍ وتوان
وقضى إلاّ فظايا لحطامٍ من دِنان
مَرَقتْ وسْط رحاب الكون رعناء العنان
تبتغي قلباً من الدرات دفّاق الحنان
لتعيد الحب عهداً ويجنّ العاشقان !

هذه تمّ حياتي أتراني جِدُّ فانٍ ؟ !
إنني أفنى فناءً هو بعثٌ لي ثانٍ
ثم أقضي ثم أحيا هائماً في ثوران
أترى هذا خلودي ؟ أم تُراه في الجنان ؟
وترى البعثُ التقاءً بين ذرات الكيان
مثلما آب غريبٌ أو تلاقى النازحان ؟

***

إنْ يكُن هذا... أو استرجعتُ أكوابي وعاني
فأنا في ظلّ هذا العيش أحيا بكياني
فإذا حانَ مماتي خالدٌ طيّ الزمان . . .

القاهرة محمد فهمي

علم الاجنة

من الوجهة الاجتماعية

من المعلوم أن التناسل وكثرته يسببان ازدياد عدد السكان مما يؤدي إلى التزاحم والتطاحن على كسب الرزق بل يؤدي الى الحروب، إذ أن هذه ترد غالباً الى أسباب اقتصادية أساسها كثرة السكان واضطرارهم إلى الحاجيات . ومما لا شك فيه أن العلاقات النوعية بين الذكور والاناث مردها حب الابقاء على النوع ، وطالما أدت هذه المسائل وما يتفرع عنها إلى صعوبات للأفراد والجماعات وثمّ مسائل أخرى عظيمة القيمة من الوجهة الاجتماعية سنتناولها هنا بوجه عام .

(١) شرعية الاجهاض — كثيراً ما تلجأ الام بمفردها أو بمساعدة ذويها أو غيرهم إلى إحداث الاجهاض وانهاء عمر الجنين قبل موعد ميلاده ويرجع السبب في ذلك إما إلى الفقر أو سوء الصحة وعبء العمل المنزلي أو الى الخلاف بين الزوجين أو لعدم شرعية الاتصال النوعي الذي أدّى الى الحمل ، وما الى ذلك من أسباب. وهناك من الدوافع ما يجيز للطبيب احداث الاجهاض فيكون إذ ذاك شرعيًّا. ولكن هناك من الاسباب ما لا يقتنع بها الطبيب. ولقد قيل إن هناك من أولي الرأي من يرون شرعية الاجهاض طالما لم تسمع دقات قلب الجنين ! وتتهدم هذه الحجة أمام ضوء العلم ولا تقوى على الثبات إذ المعلوم أن قلب الجنين يدق في الاسبوع الرابع منذ بدء الحمل وعندئذٍ تكون الام في شك من أمرها اللهمّ إلاّ ما يخامرها من مخاوف ، كما أنه ليس من السهل الاصغاء إلى دقات قلب الجنين إلاّ في وقت متأخر من الحمل . وفوق ذلك فإن مجرد حصول الاخصاب ينتج لنا مخلوقاً جديداً له كل الحق في الحياة كأي فرد آخر. وما الفرق بين ذلك المخلوق وبين البالغ إلاّ عدم اتاحة الفرصة لأولهم لاستعمال المواد الغذائية التي يبني منها جسمه لينمو ويقاس، إذ أن الجوهر الاساسي كامن في

البويضة المخصبة . فالاجهاض في أي مرحلة من الحمل غير جائز إلاّ لإنقاذ الأم . أما ما عدا ذلك من أسباب فوارٍ لا يقام له وزن . كما أن الانفصال النوعي الذي لا يعضده دليل أو لا يكون ذلك قصده الأول ، عمل لا تقره القوانين الطبيعية .

(٢) الاخصاب الآلي — ليست فكرة الاخصاب الآلي بحديثة فقد مارسها القابلات من زمن إذ كثيراً ما يلجأنَ إليها فتعطى المريضة قطعة قطن (صوفة) ويطلب منها وضعها في المهبل بشرط أن تكون دافئة كما هي ولا تحوي هذه القطعة سوى سائلاً منوياً لأحد معارف القابلة . ومنْ يقمنَ بذلك العمل بعد أن يتقنَ من أن العيب عيب الرجل وليس للزوجة دخل في احداث العقم الذي تشكو منه . وإذا حصل الحمل وقد يحصل ، كان الوليد غريباً عن رب العائلة ويقوم بعض الأطباء بهذه العملية في حالات خاصة لا يستطيع الزوج فيها افراز السائل المنوي داخل المهبل فيقومون بحقنه في عنق الرحم مباشرةً . ولقد قاموا أخيراً في انجلترا يدعون الى الاخصاب الآلي إذا كان الزوج عاجزاً عن القيام بمهمته وذلك بأن يأخذوا سائلاً منوياً من شخص آخر بعد موافقة الزوج ، ويدخلونه في رحم الزوجة وقد عززوا ذلك بقولهم إن مثل هذين الزوجين الجديدين سيضطران إلى أن يتبنيا طفلاً لقيطاً غريباً عن كليهما ولا يؤدي ذلك الى ازدياد عدد السكان وهو المشكلة الاساسية . ثم أنهم يغرون النساء بقولهم إن العقل من لهنَّ ودمهنَّ وأنهنَّ يستطعنَ أن يحصلنَ على أطفال ذوي صفات خاصة وذلك باختيار الرجل الذي سيؤخذ منه السائل المنوي كأن يكون أزرق العينين أصفر الشعر طويل القامة الى غير ذلك من صفات . ولهذه المسألة قيمتها الاجتماعية ولا ندري المدى الذي ستتطوّر اليه وقد حبذها البعض كما عارضها البعض الآخر .

(٣) تحديد النوع قصداً — كتبوا كثيراً في هذا الموضوع وقالوا كثيراً مما يستند حيناً الى العلم أو تكسيه الخرافة ثوب الحقيقة . والواقع أن المسألة معقدة ويبدو أن حلها ليس سهلاً وتكمن أهميتها في استدراج البسطاء وغير البسطاء والتغرير بهم في سبيل الحصول على نوع معين قد يرغبون فيه ويتوقون اليه . والمعروف أن خلايا الأنثى النوعية تنتمي كلها الى فصيلة واحدة إذ أن بها (٢٣+س) من الأجسام الملونة وس هو الجسم الملون المحدد للنوع وذلك بعد عملية الاختزال المؤدية الى الانضاج . أما خلايا الذكر فعلى نوعين يحوي أحدهما

(٢٣ + س) من الأجسام الملونة بينما يحوي الآخر (٢٣ + ي) من هذه الأجسام بعد نفس العملية المشار اليها . وتتحكم الصدفة في نوع الحيوان المنوي الذي يحالفه النجاح فيخصب البويضة وربما توقف ذلك على ما يحيط به من ظروف وعلى حالة صاحبه الصحية . ويبدو أن هذا الفرق هو الأساس الذي يؤدي الى اختلاف نوع النسل . غير أن الهرمونات أثراً بعيداً في الباس هذه المسألة توبها النهائي. فقد نجحوا في تحويل الانواع تحويلياً في بعض الحيوانات كما يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن الجنين غير مميز في غدته النوعية في أول الأمر كما أنه يحمل في جعبته الانسجة اللازمة لتكوين الاعضاء التناسلية الثانوية لكلى النوعين .

قيل ان هناك نوعاً من الحيوانات المنوية يتجمع على القطب السالب وآخر يتجمع على القطب الموجب، إذا ما مر تيار خلال السائل المنوي ، كما قيل أن تفاعل المسار التناسلي في الانثى ذو أثر فعّال في تحديد النوع فان كان حمضيًّا أحدث أناثاً وان كان قلويًّا أحدث ذكوراً . وقيل أن بويضات المبيض الأيمن تحدث نوعاً ما وبويضات الأيسر تحدث النوع الآخر . وهكذا من الاختلافات التي لا حصر لها .

يجب التفريق بين مسألتين مختلفتين أولها احداث النوع قصداً وهذا أمر مشكوك فيه . وثانيهما التعرف على ما قد حدث بالفعل ابان الحمل قبل حلول الميلاد. وقد ورد في بعض البرديات أن قدماء المصريين عرفوا ذلك من أثر بول المرأة الحامل على سرعة نمو بعض الحبوب . ويعزون ذلك الآن الى أثر الهرمونات التي توجد في البول والتي يقال إنها تختلف في الذكر عنها في الأنثى. ويبدو انه لادا عي للاهتمام بهذه النقطة إذ أن ما استقرّ لا يمكن تغييره ثمّ أن الولادة ستحل إن آجلاً أو عاجلاً. ولعلم اذ ذاك علم اليقين ما هنالك من نوع . أما ما قد يخالج الأم والأقارب من فرح لاحتمال فقدان بعض ثروة ضخمة اذا لم يعقب مورثها ذكراً ، فمسألة سهلة الحل إذ ضمن الشرع حقوق الجنين بما أسماه الحمل المستكن .

***

ويحسن بنا الاشارة الى رأي أبي موسى الأشعري في توريث الخنثى إذ قال «اتبعه حين يبول » وفسروا ذلك بأن البول اذا سال من نهاية واحدة ورث الشخص كذكر ، أما اذا

خرج من نقطة أخرى ما بين النهاية ومركز العجان ، فانه يرث كأنثى. والواقع أن هذا لا يتمشى مع العلم إذ أن الخنثى الحقة تكاد لا تعرف في الانسان، وفوق ذلك فقد يقع خطأ تكويني في قناة مجرى البول يجعل فتحتها في الذكر ذي الخصية مستقرة في أي بقعة من مركز العجان الى ما قبيل نهاية الحشفة. وبالاجمال يجب فحص كل حالة خنثى على حدتها وتحرير ظروفها مع الالمام التام بالتاريخ التكويني للأعضاء التناسلية ، حتى لا يضيع حق أو يُظلم أحد .

(٤) شرعية الطفل — تتحكم في هذه المسألة عوامل كثيرة وللطب الشرعي الكلمة الأخيرة فيها . غير أن هناك بعض النقط التي تجذب علم الأجنة الى هذا الحوار وأهمها علاقة تاريخ الحيض بموعد حدوث البيض (خروج البييضة الناضجة من المبيض) ومدى بقاء البييضة صالحة للاخصاب المهيء للتكوين ، ثم مدى بقاء الحيوان المنوي صالحاً للقيام بوظيفته (الاخصاب) داخل المسار التناسلي للأنثى. وهناك من يقول إن الحمل يحدث عند أي طور من مدى الدورة الطمثية . ولكن الرأي الأرجح يقول بحدوث البيض حوالي اليوم الرابع عشر من الدورة الطمثية . وأن حياة البييضة أو على الأقل مدى صلاحيتها للقيام بعملها قصير جداً لا يتعدى يوماً أو يومين . وهكذا ينتظر حدوث الاخصاب حوالي اليوم الخامس عشر من دورة الطمث . والرأي المسلم به أن البييضة لا تستطيع الانتظار أكثر من يومين وأن الحيوان المنوي لا يستطيع البقاء صالحاً ليؤدي وظيفته إلا أياماً قلائل. ويؤكدون أن الخلايا النوعية لا يمكن أن ينتظر بعضها البعض. وتتعقد المسألة بعامل آخر هو مدى مدة الحمل فالمعتقد أنها تتراوح بين ٢٢٠ الى ٣٣٠ يوماً ولو أن الأغلبية العظمى من الحالات تقع بين ٢٧٠ الى ٢٧٣ يوماً من تاريخ الاخصاب أو الجماع المثمر ، وتبلغ حوالي ٢٨٠ يوماً من تاريخ آخر يوم في آخر حيض . والحيض في ذاته متقلب . وهكذا نرى أن الموضوع محتاج لبحث .

دكتور يوسف حسن الدعسر
أستاذ التشريح بكلية الطب بجامعة فاروق الاول

نبات الرامي

أو أحرة الصين — أو الصوف النباتي

قرأت في حداثتي منذ أربعين سنة النبذة المقتضبة الآتية على نبات الرامي ، وذلك في مجلة المباحث العلمية الانكليزية العامة المؤرخة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٦ بعنوان « وبر نباتي صيني نادر لصنع الثياب » فأعجبت بخصائصه الطريفة وتوقعت له مستقبلاً حسناً ورواجاً عظيماً في عالم المنسوجات . وتمنيت حينئذٍ أن يطيل الله حياتي حتى أشاهد هذا النبات ذا الوبر العجيب مزروعاً في وادينا الخصيب . فأراد القدير سبحانه وتعالى ، تحقيق أمنيتي تلك ، في شيخوختي إذ غدوت في مطلع العقد السابع من العمر ، قضيت أكثر من أربع حلقات منها مشغوفاً بالمباحث العلمية على تباين أغراضها . ولكل امرىء من دهره ما تعوّد . وكنت في خلال تلك الحقبة المديدة كثيراً ما أناجي نفسي قائلاً : —

« هل زرعت مصرنا القديمة أو الحديثة هذا النبات النافع ، وحتّام تتقاعد عن مجاراة الأمم الأخرى في الحصول على النباتات الأجنبية للانتفاع بها اقتصادياً لأن هذا الأمر من أوجب واجباتنا نحن معشر الوطنيين المصريين الناهضين لنحذو حذو أجدادنا في دولة الفراعين التي أثبت التاريخ أنها كانت مهد العلم والحضارة . وهي العريقة في المدنية التي علمت العالم ، قواعد المدنية وأصولها ونشرت عرفانها في عالم حالك الظلام ، غارق في دياجير الجهل والهمجية والفوضى » كما قال حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا في خطابه في دائرته الانتخابية في كفر الدوار يوم ٢٦ ابريل سنة ١٩٤٦ » والحمد لله فقد تحققت الأماني . واليك ما قالته المجلة الانكليزية المشار اليها في وصف الرامي : —

« علمنا أن المدارس الصناعية ومدارس النسيج المشهورة التي تديرها السيدة إرنست هارت في دونيجال من أعمال إرلندة ، قد انتجت من وبر الرامي نسجاً من المنسوجات الفاخرة التي تصلح للاغراض الطبية والجراحية . ومنها قماش متقن ، لا ينضح الماء . ولا شك

أنه سيصير أصلح لاستشفيات والاستعمالات الشخصية من الشراشف « الملاءات » المطاطية المألوفة الآن . وثمة صنف جديد يصنع أيضاً من وبر الرامي ونعني به الكلل (الناموسيات) التي لا تمزق . وهي نافعة الاستعمال في المناطق الحارة ، وذلك لأنها تمكث زمناً أطول من مثيلاتها القطنية ، وتظل أقل منها تعرضاً لتشقق منافذها (عيونها)

« والرامي فصيلة من فصائل نبات القُرَّاص الضخم « بضم القاف وتشديد الراء مع فتحها » عشب ذو وبر حاد يقرص من مسّه . والواحدة قُرَّاصة كما جاء في معجم المنجد » ووبره ينمو تحت لحائه الخارجي مباشرةً ويصلح للنسج ، إما وحده وإما مخلوطاً بالصوف أو القطن فيكسب القماش الذي يدخل في نسيجه صقلاً حريرياً جميلاً . والرامي من حاصلات بلاد الصين عامياً ، حيث تزرع به مساحات كبيرة جداً . ومن خصائصه أنه متى زرع ، ظلَّ في تربته منتجاً غلته ، اثني عشرة سنة . وعالما يُفرط منه نتاجه الناضج في إبانه ينمو غيره مرة أخرى ، وهلمَّ جرًّا » .

***

وجاء في معجم تشمبرس الانكليزي أن الرامي ، Ramee و Ramie هو حشيشة الصين واسمه بالسان التباني Boehmeria nivea بهمريا نيڤيا أو Rhea ريا وهكذا يسمى وبره . وهو نبات مستعمل في الشرق منذ زمن بعيد لصنع الحبال والأمراس « السلب أو حبال المراكب » ومنه ينسج الصينيون واليابانيون ثياباً .

وورد في المعلمة الانكليزية : « الرامي نباتٌ وبريٌّ ذو نوعين ، وهو من فصيلة الأورتيكاسيا Urticaceae . وأحدهما بهمريا نيڤيا والآخر بهمريا نيڤيا تيناسيسيما tenacissima ويزرع كثيراً في بلاد الهند والأقطار المجاورة لها . وهو ذو منافع اقتصادية عظيمة إذ يُعدُّ وبره من أمتن الألياف وأنعمها في المنسوجات ويمتاز بميزات كثيرة غريبة مثلها في صوف الغنم »

ثم قرأت في أحدث ما ورد عليَّ من المجلات العلمية الانكليزية نبأ كان من بواعث سروري ، ولا غرو فقد جاء فيه ، « أن قدماء المصريين عرفوا الرامي في عهدهم واستعملوه

في تكفين كثيرين من موتاهم وفي لف جثث محنطة جمة » فقلت عندما انتهيت من مطالعة هذا الخبر « انه قد ينفي الاعتقاد السائد حتى الآن ، وهو أن الجثث المحنطة التي يكشفها علماء الآثار بين الفينة والأخرى ، ويقولون انها ملفوفة جميعها بالكتان ، هي ليست كذلك لأن أكثرها ملفوف بالراعي وهو أمتن من الكتان بعدة مرات » .

فحفزني ما وقفت عليه من هذه المعلومات القيمة ، قديمها والحديث ، كما أسلفت ، على مواصلة استقصاء الموضوع حتى أقف على الحقيقة برمتها . فأثرت زيارة قسم البساتين التابع لوزارة زراعتنا في ضاحية الجيزة ، ابتغاء الاستعلام عن الراعي ، وهل هو معروف في مصر ويزرع في أرضها ؟ وصحت عزيمتي فيممت شطر ذلك القسم في صباح يوم ١٠ أبريل سنة ١٩٤٦ حيث تشرفت بمقابلة حضرة رئيسه المفضال صاحب العزة يوسف بك ميلاد ، فما إن أطلعته على رغبتي حتى تفضل فوجهني الى حضرتي الأستاذين سليم أفندي نظيف وأبي زيد أفندي خليفة جابر وهما المشرفان على زراعة الراعي . فأتاحا لي مشاهدة ذلك النبات العجيب في مستنبتاته وحقل تجربته وأعطياني نموذجاً من وبره الناعم الحريري الملمس ، كما قدم لي حضرة المدير ميلاد بك ، ساقاً جافة بألیافها .

وقد أخبروني أن ولاة الأمور يهتمون به كل الاهتمام ، وذلك نتيجة اختراع آلة اميركية ، لتقشير ألياف الراعي عن سوقه تقشيراً متقناً عاجلاً . وقالوا ان التقشير اليدوي كان حائلاً يحول دون إقبال الزراع على زراعته للانتفاع بوبره المتين جدًّا ، في المنسوجات والحبال ، ثم صرحوا بأن وزارة الزراعة قد أقرَّت في الميزانية العتيدة تخصيص عشرين فداناً من أطيانها في تفتيش سحا ، لزراعة الراعي ، لتصير نواة لغيرها ، فاغتبطت بهذه البشرى التي زفوها إليَّ وودَّعتهم شاكراً لهم حسن صنيعهم واعداً إياهم بكتابة هذا البحث في مجلة المقتطف تنويراً لأذهان من يعنون به . ومن حسن الحظ اني عندما شرعت في إعداد هذا المقال ، وكاشفت بنيتي حضرة الصديق الأستاذ اسماعيل مظهر رئيس التحرير لقيت منه تشجيعاً أدبيًّا عظيماً إذ أرشدني الى كتاب زراعي قديم طبع في القاهرة منذ نحو ٨٠ سنة فاقتبست منه الفصل التالي على الراعي ، وهو كل ما يشفي غلة القارىء الزراعي في العهد الحالي : —

أنجرة الصين

نقلاً عن الجزء الثاني من كتاب حسن الصناعة في علم الزراعة — تأليف المغفور له الأستاذ الحاج بك ندى . معلم علم المواليد الثلاثة بالمدرسة الطبية ومدرس علم الزراعة بالمدارس الحربية — (وهو سفر نفيس طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر في عهد المغفور له الخديوي اسماعيل باشا) .

اعلم أن النباتات التي تصنع منها المنسوجات ، صعبة التعود على الأقاليم التي يراد ادخالها فيها ، ومتى حصل النجاح في إدخال نوع جيد منها ، تحصلت منه أرباح عظيمة . وانتشاره في الزراعة قد يساعد كثيراً على ثروة الممالك .

فالقطن الذي أدخلت زراعته في القطر المصري ، في عهد المرحوم جد الخديو الأعظم ، قد اكتسب منه الزراعون مبالغ جسيمة من الدراهم . لكن هذا النبات معرَّض كغيره للمصائب التي تتلف محصولات الزراعة ، فانه قد أصيب منذ سنوات بدودة تتلف كثيراً من مبايضه أثناء الزهر . وتدخل في الجوز متى كان ليناً فتمنع تكوين القطن في باطنه .

ومرض القطن يحصل منه إتلاف عظيم في زراعة الديار المصرية ، إذا لم يتنبه له الزراعون، كما حقق ذلك جناب أندرية بك الاجزاجي الكيماوي بالمحروسة فقد شاهد منذ سنين أن انتشار هذه الحشرات آخذ في الازدياد دائماً ، وأعلن في شأنها جملة رسالات مهمة في أوربا. وذكر جملة وسائط لمنع تكاثرها وانتشارها .

وشجر الكرم الذي هو ثروة بلاد كثيرة يصاب بنبات خفيّ الزهر يسمى بالسان النباتي (أويديون) ويحدث فيه أتلافاً عظيمة كل سنة .

وقد أصيب البطاطس أيضاً في البلاد الأجنبية منذ زمن طويل بمرض لم يمكن تخلصه منه الى الآن (وقد سبق ذكره في الخضراوات)

فمتى استوطن نبات أجنبي وانتشر في بلدة وابتدأ أن يساعد على انتشار الثروة ، ظهرت له في الغالب آفات أو حشرات متلفة ينشأ عنها ضرر عظيم في المزروعات . فكأن المراد بذلك إلجاء الزراعين الى البحث عن إدخال نباتات أجنبية جديدة تقوم مقام النباتات القديمة

التي تغيرت في أرض لم تكن وطنها الأصلي او ماتت بالأمراض أو بالحشرات . ولذا شرعوا في أوربا الآن في البحث عن استبدال البطاطس الذي أتلفه المرض زيادة فزيادة بانيام الصين الذي لم يصبه أدنى مرض الى الآن .

والمأمول انتشار زراعة أنجرة الصين بالديار المصرية مع زراعة القطن . وقد استنبتت في الأعصر الخالية ، ويظهر أن قدماء المصريين كانوا يعرفونها .

وأنجرة الصين تسمى بالأفرنجية (أورتى دوشين) وباللسان النباتي (أورتيكا سينفسيس) أو (أورتيكا أوتيليس) أي النافعة كما تسمى أيضاً (أورتيكاتينا سيسيا) أي ذات الألياف المتينة جداً . وهي صنف من الأنجرة الثلجية ، لها ساق أرضية في غلظ الأصبع متجرد من الظاهر ، بيضاء من الباطن ، يخرج منها عدة سوق قائمة ، متينة ، طول الواحدة منها من متر الى متر ونصف ، ذات تخاع كثير ضارب للحمرة . وهي ملساء نحو أسفلها وَبَرية في باقي طولها .

وهذه السوق الأرضية إذا زرعت بالشروط الموافقة لزراعتها ، أمكن أن تعيش في الأرض وتتحصل منها سوق زمناً طويلاً . والسوق القائمة تصير خشبية إذا لم تقرط ، فتحمل فروعاً أفقية مُزيَّنة بأوراق متوالية ذنيبية عريضة قلبية ، مسنَّنة ، منشارية ، خضراء دكناء ، خشنة السطح العلوي ، ومسطحها السفلي ضارب للبياض مع انه أبيض جداً في الأنجرة الثلجية . ولهذه الأوراق ثلاثة أعصاب قاعدية وهي منطاة بوبر كثير ومصحوبة بأذينين . والأزهار عنقودية متراكمة تخرج من آباط الأوراق من نصف النبات الى جزئه العلوي . وقد أهداها طيب الجناب الخديوي الأعظم حضرة (بورجيرياك) الى حديقة الجزيرة فنجحت نجاحاً عظيماً .

وأنجرة الصين الكثيرة النفع ، قد استنبتت في أرخبيل الهند وفي اليابان وبلاد الصين وأهل الصين يزرعون هذا النبات في بيوت صغيرة ، بالأراضي الرطبة التي بقرب الانهار . وبعد قرط سوقها ، تنزع أوراقها ثم تحال السوق الى حزم ، وتمطن في الماء زمناً يسيراً ، ثم تزال بشرتها بسكين .

و ألياف هذا النبات من ألذ الألياف المعروفة وأحسنها فهي بيضاء صدفية ، ناعمة

الملمس جداً . وبهاتين الصفتين تتميز عن ألياف الأنجرة التاجية ذات لونها صاوب الخضرة وملمسها خشن . والأقمشة والحبال التي تصنع من أنجرة الصين ، تمكث زمناً أكثر من التي تصنع من الكتان أو التيل ، ومتانتها عظيمة. ويتكاثر هذا النبات بالبزور وبتجزئة الجذور

فالتكاثر بالبزور صعب جداً ، وبه تصير الأنجرة معرضة للتغير . والسوق التي تتولد منها لا تصل الى قوتها ولا تصير صالحة للقرط إلاَّ بعد سنتين .

وأحسن طريقة لتكاثرها تجزئة جذورها . فبهذه الكيفية يتأتى قرط السوق مرتين في السنة الأولى . وأربع مرات في الثانية ببلاد الصين . ومثل ذلك يحصل في الديار المصرية .

وكيفية تكاثر أنجرة الصين بتجزئة جذورها ، أن تكشف تلك الجذور ثم تجزأ ثم تزرع خطوطاً في أرض مجهزة بحيث يكون البعد بين كل قطعة والأخرى ٦٠ سنتمتراً من جميع الجهات . وأحسن الفصول لزراعتها بالديار المصرية ، فصل الربيع ومع ذلك فقد زرعت في فصل الخريف ونجحت .

وفي أثناء نمو السوق تسقى الأرض بكثير من الماء في فصل الصيف . ولا بأس بقرط الفروع لاكتساب السوق قوة . وما يزرع منها في فصل الربيع تتحصل منه جملة محصولات في صيف وخريف السنة عينها .

واعلم أن البعد الذي يجعل بين النباتات له تأثير في حالة الألياف . فاذا أريد الحصول على ألياف ثخينة ، زرعت النباتات على بعد ٧٥ سنتيمتراً . واذا أريد الحصول على ألياف دقيقة زرعت النباتات على بعد ٥٠ أو ٦٠ سنتمتراً ، فتستطيل السوق حينئذٍ وتصير أليافها دقيقة كثيرة .

والنباتات المتولدة من البزور لا تبلغ في خريف السنة الأولى من ٦٠ الى ٨٠ سنتمتراً ولا يتحصل منها محصول الاَّ في السنة الثانية ، مع أن النباتات التي تتحصل من تجزئة الجذور ، تتولد لها سوق يبلغ طولها متراً ونصفاً ، ويتحصل منها محصولات في السنة الأولى . ولأجل قرط السوق لا ينبغي أن ينتظر نضج البزور ، بل ينبغي قرطها متى ابتدأت أن تكتسب قواماً خشبيًّا نحو قاعدتها . وذلك يكون قبل التزهر بزمن يسير .

وقد ذكر حضرة جاستينيل بك نبذة لطيفة في شأن هذا النبات وهاك نصها : —

اعلم أن أنجرة الصين التي اعتادت على أهوية القطر المصري، في عصرنا هذا وتشهرت بمحصولاتها الجيدة . وهي التي تصنع من ألبانها الأقمشة الفروية للانسان ، في كل اقليم جديرة بالتفات الزراعين اليها . ولا يخفى أن ألبافها التي في قشرة ساقها ، تكون متلاصقة ما دامت المادة الصامغة لها موجودة وهذه المادة مكونة من شحم وراتينج وصمغ ، وبكتين وسكر ومادة زلالية ومادة ملونة .

والطريقة السهلة المجارية ببلاد الصين أن تقرط سوق النباتات صباحاً حالة كونها مبتلة بالندى . ثم تفصل القشور بالشق ثم تحك السوق بسكين لتنفصل منها الألياف ثم تغمر تلك الألياف والقشور زمناً يسيراً في الماء المغلي ثم تجفف في الشمس ثم تضرب بالعصى الصغيرة ثم تمشط .

فاستبان مما ذكر أن القشور المنفصلة من سوقها لا تعطن في الماء . وقد ظهر لنا بالتجارب أنها اذا عطنت في ماء درجة حرارته ٣٢ + مدة يومين ، تبدد ما فيها من المنسوج الخلوي وانفصل بسهولة عن الألياف بواسطة فرشة . ثم اذا غسلت بماء كثير ، انفصل عنها ما بقي فيها من المنسوج الخلوي بالكلية .

وهذه الألياف تكتسب ابيضاضاً عظيماً إذا عرضت زمناً لتأثير الندى والشمس .

قال وقد ذكر المعلم (رامون) في رسالة ألفها في أنجرة الصين أن التجارب التي أجريت على هذا النبات . تثبت انه لا يستدعي أرضاً خصبة . وانما يستدعي رطوبة ودرجة حرارة مرتفعة . وهو يصلح الأرض فيصيرها نافعة للزروعات الأخر . وهذه المنفعة لا توجد في النيل ولا في الكتان فانهما يستدعيان أرضاً خصبة وينهكانها. وأيضاً هذان النباتان سنويان . مع أن أنجرة الصين معمرة وقوة انباتها لا تستدعي الاهتمامات التي يقتضيها النباتان المذكوران . وضف الى هذه المنافع كثرة محصولها لطول سوقها وسهولة انفصال قشورها التي تتبدد بسرعة وسهولة مع أن النيل والكتان يستدعيان تعطيناً أولياً طويل المدة مضراً بالصحة .

وهناك سبب آخر يوجب انتشار زراعة أنجرة الصين بالديار المصرية ، وهو أنها تتحصل منها ألياف أجود من ألياف كل من الكتان والنيل لطولها ، وبياضها ولمعانها العدم

ومتانتها فهي أشبه بالحرير . وقد حقق صناع أوربا في هذه الألياف ، سهولة عظيمة في اكتساب الألوان اللطيفة . وتختلط بكثير من القطن والصوف والحرير بسهولة فتتكوّن من ذلك أقمشة جامعة للمتانة والبهاء . ولاشك أن زراعة أنجرة الصين في جزء متسع من أرض الديار المصرية ، يتحصل منها ربح عظيم .

الكلام على زراعة الانجرة المعتادة او الكبيرة

تسمى بالافرنجية (جراندورتي) وباللسان النباتي (أورتيكاديوئيكا) أي ذات المسكنين وأذا استثنينا الفقراء الذين يجمعون الانجرة من الغيطان ليطعموها لأغنامهم وجدنا أن سائر الناس لا يعتني بهذا النبات ، بل يبغضه لأنه متى لمسه يستشعر منه بأكلان محرق ناشيء عن سائل يرشح من طرف الوبر الذي يغطي سطح الأوراق والساق . ولهذا السبب يسمى هذا النبات في العرف ، بالقريص . فاذا قطعنا النظر عن هذا الضرر الخفيف رأينا أن الانجرة الكبيرة نافعة فان سوقها اذا أحرقت تحصل منها كثير من البوتاسا . واذا عطنت كالكتيل استخرجت منها ألياف ان لم تقرب من ألياف التيل في الجودة تقرب منها في الرقة والبياض والاحالة الى أقمشة بسهولة . وقد صنع منها ورق لطيف جدًّا في بلاد النمسا وأهل قشتالة (بحيث جزيرة في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا) يصنعون منها حبالاً متينة وشبكات لصيد السمك وخيطاً للخياطة . وقد حققت جمعية الزراعة التي في آنجيه (مدينة في فرانسا) جميع هذه الخواص في الانجرة وأوصت بزراعتها . تمّ بحروفه

* * *

وبعد كتابة ما تقدم أبلغني حضرة رئيس التحرير خبراً يؤيد معرفة قدماء المصريين للرامي منذ زمن بعيد اذ قال إنه أن في بلدة شبرا خندي من اعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية حوضاً زراعيًّا يسمى الى اليوم بالراميَّة . وان هذه التسمية ترجع الى العصر الذي كان يزرع فيه ذلك النبات المشهور بتلك الجهة . وظل معروفاً في الديار المصرية الى عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير جد الأسرة الملكية المصرية وخلفائه »

عمر صبحي عنتري

مكتبة المقتطف

(١) عبد الله فكري : عصره ، حياته ، أدبه

للاستاذ محمد عبد الغني حسن — ١٢٨ صفحة من قطع المقتطف

طبعته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

كل ما كنّا نعرفه من ترجمة عبد الله فكري باشا ناظر المعارف والأديب الجليل بضعة أسطر تتناقلها كتب التاريخ الأدبي لجيل الماضي ، ولم يكن ذلك بالذي يشفي غلة الباحث في هذا التاريخ ، وظلت ترجمة حياة هذا الاديب الكبير مجهولة لم توفق الى الباحث المدقق بالرغم ان رجالاً من عصره فقروا بالكثير من البحث والدرس ، ولا يرجع ذلك الى علوّ كعب هؤلاء ، ولكن يرجع الى أن حياة هؤلاء كانت قد اتصلت بتاريخ سياسي ودور من أدوار الحركات القومية ، فكان الاهتمام من هذه الناحية أكثر من الاهتمام بالناحية الادبية ، ولم يبحث أدبهم إلاّ في ضوء أثرهم السياسي .

ولقد حمل الاستاذ محمد عبد الغني حسن عن الجيل الحاضر هذا الواجب فنهض به وأدّى الرسالة عنه . وكان عملياً في هذا النهوض ، فدراسته عن عبد الله فكري دراسة استوفت كل شرائط البحث العلمي ، فهو يصوّر لنا العصر الذي عبّ فيه المترجم له تصويراً رائعاً نحسّ انه قد نقلنا اليه وقد ألمّ بدقائقه إلماماً جعل للتاريخ روح الرواية والقصة فهو حين يحدثنا عن طفولة عبد الله فكري ونشأته العلمية لم ينسَ أن يعطينا الصورة الواضحة عن أساتذته الذين كان لهم الأثر القوي في حياته ، وهو حين يتحدث عن عصامته لم ينسَ أن يذكر لنا كيف كان مجلس النواب وقتذاك يهتم بالنهضة التعليمية ، وهو حين يتحدث عن رحلاته لم ينسَ أن يفرض علينا صورة جميلة لمؤتمر المستشرقين الذي حضره المترجم له ولبعض شخصياته . ثم ينتقل بعد ذلك في بحثه من درس خلق الرجل الى صلته بالثورة العرابية وموقفه في ذلك الصراع وتبرئته مما اتهم به من الاشتراك فيها ولكن وطنيته لم تكن يوماً مثاراً للشكوك ، ثم تنتهي الى بحث أدبي في شعر الشاعر من الناحية الأدبية في الشعر والنثر

يخلص به الى درس آثار فكري درساً رائعاً في العرض رائعاً في التحليل . وان هذه الدراسة لتعتبر من الدراسات القوية التي تقرب بها الأدب الحديث عن صفحة الأدب الماضي كانت في حاجة الى أن تجلى له في مثل ما جليت بقلم هذا المؤلف المدقق .

(٢) محمد بن عبد الوهاب

للاستاذ أحمد عبد الغفور عطار — ٢٠٠ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاستقامة

الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار من أدباء الجزيرة العربية المبرزين ، ومن شعرائها الذين يشعون أسس النهضة الحديثة للشعر هناك ، فأسلوبه قائم على دعائم من قوة الفكر وحلاوة التعبير ودقة التصوير ، زاخر بالأخيلة والمعاني المستحدثة ، وقد أراد أن يخدم وطنه في الناحية التاريخية فأخرج للعالم العربي دراسة عن مؤسس الدعوة الوهابية المصلح الكبير محمد ابن عبد الوهاب فلم يكن المؤرخ فحسب ، بل كان أول من وضع في الأدب الحجازي أول كتاب في فن التراجم واستطاع بأسلوبه الجميل أن يصوّر لرجل الأدب كما يصوّر لرجل الدين حياة المصلح الديني الكبير في إطار من الفن رائع ، فهو يعرض للقارىء صورة عن الحياة الدينية في نجد في القرن الثاني عشر للهجرة ليخلص منها الى الأثر الذي نقل هذا القطر من اضطراب الى استقرار بعد النهضة الوهابية التي وجدت نصرتها في يد أسرة منيعة حازمة بسطت سلطانها بحكمة وعزيمة اجتمعت كلها في ملك جعل الجزيرة العربية شأن وأي شأن ذلك هو العامل العظيم عبد العزيز آل سعود ، وقد صوّر لنا المؤلف الحياة السياسية والاقتصادية كذلك أدق تصوير ، ثم سرد سيرة محمد بن عبد الوهاب في الصورة النبيلة الرائعة التي أشرنا اليها انتهى منها الى الكلام على جوهر الدعوة الوهابية من صرف جميع أنواع العبادة لله وحده الى منع التوسل والاستعانة والاستغاثة لغير الله الى غير ذلك مما دعت اليه من تحريم البدع . وقد أحسن المؤلف إذ ختم هذه الدراسة ببحث في آل سعود الذي وجد محمد بن عبد الوهاب في جد تلك الأسرة محمد بن سعود ما لم يجده في الأمراء والحكام الآخرين من المعونة والحماية لأنهم لم يكونوا رؤاد حق وطلاب خير كما كان ابن سعود الذي لم تدنس صفاته الكريمة عناصر الشر والرذيلة .

هذه الدراسة النفيسة التي كتبها مؤلفها في دقة العالم المتمكن وفي أسلوب الفنان المقتدر جديرة بأن تقرأ في كل قطر عربي لأن فيها كشفاً عن حقيقة ذلك الاصلاح الذي دعا اليه مؤسس الوهابية ليخلص الدين من عوامل الوثنية التي كانت تتغلغل في نفوس الناس ولا صلة لها بالدين.

ممن فاس الصيرفي

الملامتية والصوفية
وأهل الفتوّة

تأليف الدكتور أبو العلا عفيفي استاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول ، والكتاب حلقة من مؤلفات لجنة الفلسفة المصرية ١٢٨ صفحة من القطع الاوسط

الموضوع طريف في اللغة العربية فلأول مرة يخرج فيه كتاب يلم أطرافه في لغة الضاد ومن قلم استاذ نعرف فيه دقة البحث وتقصي الأسباب ، ودقة الحس التاريخي . ولقد ألمّ الأستاذ في تصدير الكتاب بعجالة تاريخية تظهر للباحث على حقيقة هذا المذهب الصوفي ونشأته ، وقد يستكشف منها القارىء الملم بشيء من تاريخ تلك المذاهب أن الملامتية مذهب يمت الى الصوفية الشرقية أكثر منه الى الصوفية الكندرية التي نشأت في الغرب ، وان كان من المتعذر حقيقةً على أي باحث أن يضع حدوداً معينة تفرق بين نزعات الصوفية وآرائها ويقول عن يقين أن هذه نزعة شرقية وتلك نزعة غربية .

والكتاب مبوّب تبويباً علميًّا دقيقاً وآراؤه معروضة أحسن عرض في أبسط أسلوب.

خليفة ابليس

تأليف يوسف مك في ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط طبع بيروت سنة ١٩٤٥

هو كتاب من الكتب القليلة التي تخرج بين حين وآخر عند ما تهب عواصف الجدل في أشياء تتعلق بالنواحي العاطفية من النفس . حاول مؤلفه التنديد بحياة رجل صاحب دعوة جديدة هو دكتور داهش أو بالتفصيل « سليم موسى الياس العشي الأزخي» .

يروي أنصار دكتور داهش عنه روايات خارقة لكثير من الأشياء المألوفة . وقد زارنا الأستاذ حليم دموس في ادارة المقتطف وأخذ يندي عن داهش ويعيد حتى لقد رفعه الى صف الأنبياء المرسلين برسالات عامّة لجميع البشر ، ووصلنا كتاب خليفة ابليس فاذا به ينتقد جميع ما روى لنا مناصرو الدكتور داهش . حتى يصعب عليك أن تكتشف شيئاً من الحقيقة تأييداً أو اثباتاً .

على انني لا أعلم كيف وبأي عامل من العوامل النفسية والطبيعية تجد بعض الدعوات العاطفية التي تظهر في مثل عصرنا هذا مؤيدين تبلغ بهم الحماسة مبلغ الجنون ومعارضين تبلغ بهم الحماسة أيضاً مبلغ التطرف الشديد . أما هذه الظاهرة فهي عندنا في عالم الحياة أشبه بحركة الريح الزوبعة التي تهب فتثير نقعاً ثم لا تلبث أن تزول وشيكاً ، ويسميها العامة « فسوة العفريت » .

المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية

تأليف محمد يوسف موسى نشرته دار الكتب الاهلية بمصر : ١٩٤٦ : ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط . ترجمة عن ليون جوتييه الدكتور والاستاذ في الفلسفة الاسلامية

يسرنا كل السرور أن يكون هذا الجهد العلمي من قلم أستاذ في الأزهر يدرس بكلية أصول الدين فان ذلك دليلاً قاطعاً على اتجاه جامعتنا العجوز اتجاهاً أخذ يخرجها من النطاق الحديدي الذي ضرب عليها ألفاً من السنين .

والكتاب مبوَّب تبويباً تطابقيًّا حسناً فبدأ مؤلفه بالكلام عن العقلية السامية والعقلية الآرية ، واني لا أعتقد أن هذا التفريق حقيق ، بل هو أمر خلافي يمكن رده الى أشياء قد تتغير لا بتغير المكان ولكن بتغير الزمان . ثم تكلم في الفلسفة الاغريقية ثم في الدين الاسلامي وتطرَّق من ذلك الى نتائج عامة وبحوث في بعض نظريات الفلاسفة المسلمين وفي التوفيق بين الدين والفلسفة على رأي ابن رشد .

***

وقد أحسن المترجم إذ عقب على الكتاب بمعجم شامل عن جميع المصطلحات والعبارات الاصطلاحية التي عرضت في الكتاب فوفى بذلك أمانة النقل . ولكن هذه الحسنة قد طاحت بها ست صفحات من الخطأ والصواب ذيل بها الكتاب . ولا شك أن ذلك من جهل صنَّاع الطباعة وتفريطهم وسوء أدبهم فان في تلك الأخطاء ما يترفع أن يقع فيه تلميذ في المدارس الابتدائية فكيف بما تصدر عن أستاذ يجيد العربية والفرنسية إجادة ، ويحرص على آثاره أن تكون دائماً على وجه من الكمال المستطاع .

قصة الكفاح

بين روما وقرطاجنة

قلم الدكتور توفيق الطويل نشرته مكتبة الآداب بالجماميز بمصر ؛ ١٩٤٦ الطبعة الثانية

٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط

قصة هذا الكفاح من أروع قصص التاريخ القديم ، بل هي قصة الروح التسلطية التي ورثها العالم الجديد عن العالم القديم ، وقصة تنازع المصالح بين الشعوب والأجيال على مدى الأزمان . بل هي صورة من تنازع السلالات على السيادة في العالم القديم ، وأشباهها في العالم الجديد لا تقع تحت حصر . فيها تقرأ صفحة من حالنا وقعت حوادثها في الأزمان القديمة ، فليست العبرة فيها بالحوادث ولكن العبرة فيها بما تنم عنه الحوادث وبما يقع خلالها من تفاصيل تفصح عن ان الروح الانساني لا يزال كما كان في تلك العصور البعيدة .

نهضة العراق الادبية

في القرن التاسع عشر

محمد مهدي البصير — ٣٦٧ صفحة من القطع الوسط — مطبعة المعارف في بغداد

هذا الكتاب الذي وضعه الدكتور محمد مهدي البصير حلقة من حلقات التاريخ الادبي في قطر من أقطار العربية ، وهو خير معين للباحثين في النهضات الأدبية ، وقد سجل فيه حقبة لم تؤرخ . وهو دراسات لبعض رجال الأدب في القرن الماضي في العراق مهد له ببحث في نشأة النهضة الادبية هناك في ذلك القرن ثم ختمه ببحث عن قيمة الأدب العراقي وقتذاك. وعنده أنه أكبر شأناً في ذلك القرن منه في القرن الأول للهجرة من الناحية الشعرية ، وأقل قيمة وخطراً من القرنين الثالث والرابع ، ولكنه يساوي القرن الثاني للهجرة وقد يفوقه بعض الشيء

والمؤلف — من دراساته وآرائه — بصير بالتيارات الادبية ، متمكن من بحثه ، متوافرة له كل أسباب البحث .

أقاصيص الغروب

للاديبين الآنسة أماني فريد وميشيل تكلا — ٨٤ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاخاء بمصر

هذه مجموعة من القصص الجميل الذي يجمع بين خيال مبتدع وحقيقة واقعية مصورة في أسلوب رقيق فيه نفحات شعرية عطرة . فأسلوب الآنسة أماني فريد في القصص الاربع التي ضمتها هذه المجموعة أسلوب شعري رقيق وتصويرها للاحاسيس تصوير بليغ وخيالها يشير بمستقبل زاهر في عالم القصة . وقد ضمّ الاديب الاستاذ ميشيل تكلا الى هذه المجموعة قصتين بديعتي الفكرة والاسلوب . والكاتبان تنبئ تصفحهما عما هيئ لهما في عالم القصة من مركز ملحوظ .

الصرف والنحو بأسلوب حديث

للاب جبرائيل ابو سعدى — جزءان ، الاول في الصرف وصفحاته ٢٠٨ والثاني في النحو وصفحاته ٢٧٨ من قطع المقتطف — طبع بمطبعة الارض المقدسة بالقدس

من يتصفح هذا الكتاب النفيس يشعر بالجهد الذي بذله المؤلف في خدمة اللغة العربية وقواعدها الأب الفضال جبرائيل ابو سعدى أستاذ الآداب العربية في المدرسة العلاحية في بيت المقدس ، وهو عالم جليل وأديب طلّ العبارة . ولقد توفر على وضع هذا الكتاب فأخرجه لطلبة الصفوف الثانوية العليا وافياً بالغرض المنشود منه فهو خالٍ من التعقيد ميسّر للمنتفعين به وقد أحسن صنعاً في استشهاده بشواهد من آثار الشعراء المحدثين

وقد ذكر المؤلف انه لم يشأ في هذا الكتاب أن يمد اليد الى جوهر القواعد فيحوّر ويبدّل منتظراً الاقدام على ذلك من غيره ، غير أنه لم يهب من أن يجدد بعض التجديد في عرض القواعد غير منتبهٍ الى تماحكات الصرفيين التي لا تجدي التلاميذ نفعاً ، بل تزيدهم تشويشاً وبلبالاً . فنثني على حضرة الأب جبرائيل ابو سعدى على جهوده الطيبة في خدمة العلم والأدب .

المنهل

أصدر الاديب العربي المعروف الاستاذ عبد القدوس الانصاري مجلة شهرية بهذا الاسم تقوم بتأييد الحركة الادبية في المملكة العربية السعودية ، وهي حركة مباركة تبشر بنهضة طيبة ، وقد انضمّ الى أسرة تحرير هذه المجلة الفتية فريق من ألمع الكتّاب العرب ، يمدّونها بنفثاتهم ويزيدونها بأقلامهم ، فنرجو ان تسد هذه المجلة الفراغ الذي نحن في حاجة اليها ، وأن تقوم صلة فكرية بين الاقطار الشقيقة تنقل اليوم أبدع آثار ادباء الجزيرة العربية

فهرس الجزء الاول

من المجلد التاسع بعد المائة

١ القنبلة الذرية . فعلها وأثرها في الأهداف

٧ كيف تحفظ صحتك . نشيد الصحة : فهمي عطا الله

٨ ما هي الضوئيات : نقولا الحداد

١٣ أبو عثمان المازني أول من حرّر مسائل علم الصرف : عبد الله أمين

٢٤ حكم الارهاب

٢٥ السيكومتري : تقصي الأثر في لوحة القضاء والزمن : أحمد فهمي أبو الخير

٣٥ الفرنجة

٣٦ الحياة والدودة أو الخلود الجديد (قصيدة) : محمد فهمي

٣٧ علم الأجنة من الوجهة الاجتماعية : الدكتور يوسف حسن الأعسر

٤٢ نبات الرامي أو أنجرة الصين أو الصوف النباتي : عرض جندي

٥٠ مكتبة المقتطف * ١ — عبد الله فكري : صوره ، حياته ، أدبه ٢ — محمد بن عبد الوهاب : حسن كامل الصيرفي . اللاهوتية والناسوتية وأهل الفترة . خليفة ابليس . المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية . قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة . نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر . أقاصيص الغروب . الصرف والنحو بأسلوب حديث . المثل

لحق

١ — ٥٢ موسكو . برلين . لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم

عصام الدين حفني ناصف

لواحق المقتطف الشهرية

يونيو ١٩٤٦

موسكو برلين لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم

عصام الدين مفتي ناصف

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف بالقاهرة

١٩٤٦

الثورة البلشفية

وحرب التدخل

كان الناس من قديم يشكون الجهل والخوف والفاقة والعبودية ، ويتلمسون قبساً من النور يبدّدون به ما يكتنف حياتهم الاجتماعية — الاقتصادية من ظلام . وكان مفكروهم يحلمون بعصر عهد فيه تفيض الأرض بالخيرات ويخف فيه عناء العمل ويتمتع الناس بالرفاهة والهناءة والأمن ، فلما بدا أول مرة في تاريخ البشر أن تحقيق هذا الحلم الشديد أصبح في متناول اليد فزع خفافيش الناس وهبّوا يُعولون ويولولون وينادون بالويل والثبور ، ويُهيبون ببني جنسهم أن هذا الذي يحسبونه نوراً وهاجاً ليس إلا ناراً حراقاً . وتآزرت مصالح الرأسماليين ونفعية السياسيين المحترفين وفساد ذمم الصحفيين وتعصب رجال الدين ، وتضافرت مع كل أولئك شتى عناصر الشر على أن تبابل أذهان الشعوب وتعشى على أبصارها بغشاوة الجهل المطبق والتعصب الذميم ليظلّ أبناؤها مستكينين لسُخرة يديرون طواحين السادة المالكين ، فيظل السادة ينعمون بما تدرّه عليهم من الخيرات .

صانى الشعب الروسي ذرعاً بمفاسد قيصره وأمرائه الطغاة وأغنيائه السادرين في غوايتهم فأطاحهم وأطاح حكومتهم الفاسدة المتعفنة . وهكذا كرنسكي حكومة ديمقراطية عاجزة ما عتم الروس أن علموا أنها ألعوبة في يد بعض الدول وأنه ليس في عزمها ولا في مقدورها أن تنتشلهم من وهدة الحرب وأن تحبُوَهم السلامَ والخبز ، فهبّوا في وجهها . وسرعان ما برزت من خلال دخان المدافع شخصية زعيم منقطع النظير ، وأعلنت روسيا أنها قد رضيت لنفسها الشيوعية نظاماً . فإذا بالفريقين المتقاتلين يتألّبان عليها وقد أعماها الحقد والفزع ، فاندفع جنودهم يفتكون ويقتلون ويحرقون . وقد أجزلا الأموال والأسلحة والأوسمة للعناصر الرجعية والقواد القيصريين من أمثال دنيكين وكُلْتشاك ويودينيتش وفرنجل ليعيدوا سلطان الحكم القيصري . وهبّت جيوش الحلفاء

مُرمَنسك وتوغلت كتائب اليابانيين في شرق سيبريا حتى بحيرة بَيكال ، وأُرسلت فنلاندا ، التي منحتها حكومة السوفييت استقلالها ، تدعو ألمانيا في مارس ١٩١٨ أن ترسل جيشاً الى أراضيها ليزحف منها في سهوله الى الاتحاد السوفييتي فيقمع ثورته ، فاتصل القائد الالماني فون درجُولتز بالجنرال مَنَرهايم ، وزحفت جحافل الهون على أُكرانيا ، وافتتحت كييف وأُديسا . وعانى الشعب السوفييتي من الحلفاء ودول وسط أوربا ما لا سبيل الى توفيته حقه من الوصف . وقد قُوِّم ما أصاب مناحي الثروة في بلاد السوفييت من الخسائر بما لا يقل عن ٤٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات . وناهيك بما انتزعه الحلفاء منها من الولايات الهامة مثل إستونيا ولاتفيا وليتوانيا ، التي جعلوا منها دويلات البلطيق ، والجزء من أُكرانيا وروسيا البيضاء الذي أدمجوه في بولونيا ليجعلوا منها دولة كبيرة عدد أفرادها ٣٥ مليوناً (بعد أن كان ١٥ مليوناً) وبسارابيا التي ألحقوها برومانيا . ذلك الحبل من الدويلات التي خلقوها من العدم ليضيّقوا به الخناق على الاتحاد السوفييتي حربيًّا وتجاريًّا وسياسيًّا أو التي أسماها كليمنسو في وقاحة كلبية « الحاجز دون الوباء » cordon sanitaire

وعرّف البلاشفة الثائرون كيف يرقعون الهزيمة بأعدائهم « البيض » مرة بعد أخرى . وطالت « حرب التدخّل » وضجّت شعوب الحلفاء من أعمال حكوماتها وجأرت بالشكوى من تخلّف أبنائها المجنّدين عن العودة الى أوطانهم ، وامتنع حمّالو ميناء لندن من شحن الذخائر الى بولونيا ، وقام العمال بسلسلة من الاعتصابات وهدّدوا بالإضراب العام ، فلم يبق أمام الحلفاء إلاّ أن يُسرّحوا جنودهم وهكذا انتهت الحرب العسكرية . ولكن المهاجمات العدائية لم تنقطع ، وقد صرّح لويد جورج رأس الحكومة في ذلك الوقت بأن دولته قد بذلت من المال والجهد لتأييد النظام القيصري على الثورة الشيوعية أكثر مما بذل غيرها من الدول .

فاذا كانت نتيجة هذه المحاولة ؟ لقد أُحصي بعضُ ما خرب في جبهات القتال البالغ طولها ٤٠٠٠ كيلومتر ، فإذا هو يشمل ٣٦٠٠ جسر حديدي و ٣٦٧٠ جسر من جسور السكك الحديدية و ٤٣٠٠ محطة تلغرافية و ٨٧٠٠٠ ميل من الأسلاك البرقية . ونقصت مساحة

الأراضي التي زرعت حبوباً سنة ١٩٢٠ — ٢٣ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩١٦ ، ومساحة الأراضي التي زرعت قطناً وتبغاً وما الى ذلك ٥٦ في المائة ، وهبط محصول الفدان الى ٧٠ في المائة عن محصوله قبل الحرب . أما الصناعة فقد تقهقرت كثيراً إذ هبط صُنع الوُبد من ١٠٠ في المائة سنة ١٩١٣ الى ٧٧ في المائة سنة ١٩١٧ الى ١٨ في المائة سنة ١٩٢٠

يمكن تلخيص هذه الخسائر على النحو الآتي : نزلت المحصولات الزراعية في آخر الحرب العالمية الأولى الى ٨٨ في المائة عما كانت عليه قبل الحرب ثم نزلت في آخر الحرب الأهلية الى ٦٢ في المائة . وهبطت الصناعة الى ٧٧ في المائة في آخر الحرب العظمى ثم الى ١٨ في المائة في آخر الحرب الأهلية .

الاتحاد السوفييتي يستجم

كان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته يَنشُد السلام ، ويرغب في التعمير لا في التدمير ، وقد خرج من الحرب العالمية والحرب الأهلية والمجاعة أكثرَ حرصاً على السِلم وأقوى تمسكاً به إذ أصبح عليه أن ينظف بلاده من أنقاض الهدم وأن يحوّلها من مجموعة مزارعَ سيئة الادارة الى دولة صناعية حديثة وأن يشيّد مدناً عظيمة ذاتَ مساكنَ صحية مبهجة ومنشآت عامة فأعلن أساطين الحكم البلشفي أنهم لا يريدون « قيد بوصة من إقليم خارجي » وأن دولتهم تبغي أن تعيش مع الدول الرأسمالية في وئام وأنهم راغبون عن فرض نظامهم على أي شعب راغب عنه ، إذ أنهم يعتقدون أن الثورة لا تُفلح في بلد حتى تتهيأ فيه عواملها وملابساتها ، ولا يكون هذا التهيؤ إلاّ عن تطور في حياة هذا الشعب . قال لنين في حديث له مع آرثر رنسوم عن الدعاية الشيوعية في البلدان الأجنبية « قل لهم أن يجعلوا على كل بلد من بلادهم سوراً كسور الصين وأن يسخّروا مَن عندهم من عمال الجارك والحدود وخفراء السواحل وأن ينفوا مَن شاءوا من البلاشفة . إن نشوب الثورات لا يقوم على الدعاية ، وليس ثمة ضربٌ من ضروب الدعاية يستطيع أن يعجل قيام ثورة لم تتوافر عواملها ولا أن يؤخرها إذا توافرت لها تلك العوامل » .

انتهت الفترة الأولى من تاريخ ا. ج. س. ا. (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية)

U. S. S. R. (Union of Soviet Socialist Republics) وهي فترة حرب التدخل (١٩١٧ ـ ١٩٢٢) عند ما زايلت الجنود اليابانية ميناء فلاديفستك في أكتوبر ١٩٢٢ ، وانتهت معها غيوعية الحرب ، أي سياسة تخصيص كل ما في الدولة من الممتلكات والمرافق الاقتصادية لكسب الحرب دون نظر إلى أثر ذلك في الأفراد المالكين لها أو المنتفعين بها . واستبان للبلاشفة ضرورة تجميع بعض المواد الاحتياطية في يدي الدولة لكي يكون الإنتاج في الصناعة على نطاق متسع المدى يسمح بتجهيز الجيش بالعدة وتزويد الزراعة بالآلات اللازمة لادارتها طبقاً للنظام الاشتراكي ، فأعلنوا السياسة الاقتصادية الحديثة ، N. E. P. (New Economic Policy) ومنحوا أصحاب رؤوس الأموال الأجانب بعض الامتيازات موقتاً واستعانوا بالخبراء الأجانب على اختلاف أجناسهم ولم يضنوا بالأثمان المرتفعة في شراء الآلات من الخارج ، حتى زعم البعض أن هذه السياسة إن هي الا عودة إلى الرأسمالية . وقد احتفظ الاتحاد السوفييتي بالهدوء المستمر إزاء ما كانوا يرمون به في الصحف ومن فوق المنابر من الشتم البذيء المستمر .

بيد أن ذلك لم يطفىء الظمأ السخيمة المتأججة في صدور الدول الأخرى ، فبينما اعترفت الحكومة البريطانية بالحكومة المؤقتة التي وليت الحكم بعد انهيار الحكم القيصري في روسيا ولما يمض على قيامها أسبوع واحد ، إذ مرت سبع سنوات قبل أن ترسل حكومة العمال البريطانية الى الاتحاد السوفييتي سفيراً (غير مزود بسلطة كاملة) ومع ذلك فإن هذه الحكومة القصيرة الأجل لم تكد تسقط من فوق منصة الحكم نتيجة للرسالة المزورة التي استعملها خصومها لإثبات تدخل الكومنترن Comminterm (مكتب الدولية الشيوعية Communist International) في بعض الشؤون البريطانية ، حتى خلفتها وزارة من المحافظين أوشكت أن تقطع العلاقات بين الدولتين . وكان ممثلو الاتحاد السوفييتي يعاملون أينما ساروا معاملة الأعداء ، فاغتيل فوريكوف سفيره في برلوذيا ، اغتالوه في جنيف ، وقتل اليابانيون موظفاً من موظفي السكة الحديدية بمنشوريا ، ونهبت دار البعثة السوفييتية في هنجهاي ، وأخذت شتى الحكومات ترسل الى الاتحاد السوفييتي إنذاراتها ، بل إن بعضها قطع علاقته به . ولم يعد الى وصلها الا خضوعاً للرأي العام .

في سنة ١٩٢٢ أعلن وزير بريطانيا الى الوفد السوفييتي في المؤتمر المجتمع في جنوا للنظر في تعمير ماخربته الحرب ، أن دولتهم تستطيع أن تظفر بالمعونة التي ترغب فيها لتعمر ما أتلفته الحرب والحرب الاهلية ، على أن تتخلى عن خطتها الاشتراكية وعلى أن تعيد اليها الرأسمالية . وهنا أثبت ساسة السوفييت مقدرتهم على الانتفاع بما بين مصالح الدول الرأسمالية من تباين وتضارب في تقوية مركزهم ، فقد استطاع تشيرين أن يتفق مع منذوبي ألمانيا وأن يعقد معهم معاهدة راپالو التي تقرر فيها إعادة العلاقات السياسية كاملة وإعادة العلاقات التجارية المشربة بروح الود بين الدولتين ، فكان لذلك أثر ملموس في القضاء على التدخل . وقد أثار إمضاء تلك المعاهدة في صفوف الحلفاء من السخط والتضرر بالمرارة ما أثاره إمضاء ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا بعد ذلك بـ ١٧ سنة .

وفي سنة ١٩٢٣ أرسل مركيز كرزون الى الاتحاد السوفييتي إنذاراً في مسائل تتعلق بصيد السمك وما اليه من أمور قليلة الخطر .

وكثر التهديد في سنة ١٩٢٤ عند ما خط رمزي ما كدونالد كلمة فوق الرسالة الحمراء المزورة (وإن مزوري الخطوط ليجدون دائماً في أركان وزارتي الخارجية والداخلية سوقاً نافقة لوثائقهم المزورة)

وأفاض سير وليم هكس في الحديث عن «الخطر الأحمر» ثم جرّد حملة من الشرطة على وكالة السوفييت التجارية « أركوس » مما أدى الى انفصال العلاقات السياسية ، وهذا ما يكون في كثير من الأحيان نذيراً بالحرب . وفي الحق أن هذه الإغارة كانت بمثابة إعلان بحرب الاتحاد السوفييتي وتأليب الدول لمقاتلته .

وفي سنة ١٩٢٥ بعد أن قضى وزير الخارجية البريطانية سير أوستن تشمبرلن شهر العسل في البحر المتوسط مع بنيتو موسوليني ، عقدت معاهدة لوكارنو ، فهللوا لها على أنها ضمان للسلم بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا وتشكوسلوفاكيا وبلجيكا . ضمان من مَن ؟ هذا ما أجاب عليه مستر أورمسبي جور (لورد هارليش) إذ قال في حديث له : « إن تضامن المتمدنين بالمدنية المسيحية ضرورة لإيقاف أعظم خطر مشؤوم ارتفع في تاريخ

أوربا . . . وقد كان النضال في لوكارنو ، في رأيي ، هو هذا : هل ترى ألمانيا أن مستقبلها مرتبط بمصير الدول الغربية العظمى ، أم هي مائرة في طريق العمل مع روسيا لتدمير الديمقراطية الغربية . . . إن لوكارنو تعني أن ألمانيا ، ما دام أمرها بيد هذه الحكومة ، قد تخلت عن روسيا وألقت بحظها مع الفريق الغربي » .

وفي سنة ١٩٢٧ تحدث سير أوستن تشمبرلن (والد نفيل تشمبرلن) بلهجة إنذارية حادة عن سورة كاريكاتورية نشرتها صحيفة سوفييتية ورأى فيها غضا من مقامه الموقر .

وفي سنة ١٩٢٩ قام المارشال الصيني تو ـ تشون حاكم منشوريا بالهجوم على حدود الاتحاد السوفييتي . فأرسل الوزير الأمريكي مستمسن مذكرة الى فرنسا لتخاطب الحكومة السوفييتية في شأن سكة حديد منشوريا التي تُعد « مصلحة أممية » (لم يكن يستطيع مخاطبة ا . ج . س . ا . رأساً لأن العلاقات السياسية بين الدولتين كانت مقطوعة) . فلما تكفل البلاشفة بالجيش المعتدي وألحقوا به هزيمة نكراء ، سحب الوزير الأمريكي أنفه من الموضوع .

وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ استولى اليابانيون على منشوريا ، فلم يزل سير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، بعصبة الأمم حتى أغضت عن ذلك الاعتداء ، مما جعلها تذوي وتزدهف نحو الفناء ، وجعل شركات صنع الأسلحة تلتمس إذ توقعت أن يؤدي استيلاء اليابان على منشوريا الى غزوها ولايات الشرق الأقصى السوفييتية .

وفي سنة ١٩٣٣ هاج هائج هذه الوزارة القومية إذ ألقت الحكومة السوفييتية القبض على بعض المهندسين البريطانيين لأنهم كانوا يتجسسون في بلادها ويخربون ، كما جاء على لسان واحد منهم ، وطالبت باخلائهم ، في لهجة أشبه شيء بتلك التي تخاطب بها مشايخ القبائل في مناطق نفوذها ، فلما أعرضت الحكومة السوفييتية عن تلبية طلبها شرعت هذه تقاطع تجارتها (على حين أنها لم تعمد الى شيء من ذلك عندما قبض اليابانيون بعد ٤ سنوات من ذلك الحادث على عدد من الرعايا البريطانيين وجردوا بعضاً منهم من سراويلهم على قارعة الطريق وضربوا الشرطة البريطانيين ضرباً مبرحاً وعند ما حبسوا ملحقاً حربياً بريطانياً وصبوا مقذوفات الرشاشات على سفير بريطاني وأطلقوا نيران مدافعهم على سفن يخفق عليها علم بريطانيا) .

ولكن الحكومة السوفييتية أبت أن تنساق لهذا الاستفزاز المستمر ، إذ كان عليها أن تجده سهلة تنفس به طويلة تستجم فيها ، مهما يكن الثمن ، وقد كان من يئس حاكمها أن الدول المتاخمة لبلادها ، هي وغيرها من الدول ، كانت قد نهكتها الحرب حتى أصبح من خسران الرأي أن تخوض غمار حرب أخرى تتمرض فيها لحرب بين الطبقات المختلفة في داخلها .

ظلت الدول المتحالفة بعد إخفاق حرب التدخل متألبة على الاتحاد السوفييتي ، بل إنها ما أنشأت عصبة الأمم إلا لتقضاء عليه وعلى الامبراطوريات المنافسة لها ، وهذا ما أوضحه في مارس ١٩٣١ مستر لويد جورج الذي كان رأس الحكومة البريطانية وأبرز رجالات مؤتمر فرساي إذ قال في رسالة بعث بها الى ذلك المؤتمر « إذا أردنا أن نهب لأوربا بديلا من البلشفية وجب أن نجعل من عصبة الأمم عاملاً للشعوب التي لديها استعداد لمعاملة جيرانها معاملة منصفة ومهداً لأولئك الذين يعتدون على حقوق جيرانهم ، سواء أكانوا أمبراطوريين استعماريين أم شيوعيين استعماريين » .

واستمر الرأسماليون الدوليون ، مع ما بين دولهم من تباغض وتحاسد ، يحيكون مؤامرة عالمية ليُنزلوا بالشيوعية — قبل فوات الأوان — ضربة ساحقة ، قال ونستون تشرشل لمستر ا . ج . كوك : « لقد كان من الخير أن تُهشم البيض البلشفي قبل أن يُفرخ بدل أن نجد أنفسنا مرغمين على إلجد في اصطياد الفراخ البلشفية من جميع أصقاع الارض »

كان الحلفاء قد طرحوا ألمانيا بعيداً عن عصبة الأمم وعاملوها معاملة المنبوذين . وناء الشعب الالماني بالاعباء التي ألقتها معاهدة فرساي على كاهله ، وأخذ يقتنع بأنه لا منجى له مما يكتنفه من البؤس إلا أن يتخذ الاشتراكية له نظاماً وأخذ ينجرف في تيار الصداقة السوفييتية والمبادىء البلشفية . على أن الحزب الشيوعي في ألمانيا كان حديث النشأة وكان يعوزه زعماء من طراز لنين ورفاقه . فأرسل البلاشفة اليه بعثة على رأسها كارل رادك لتقدم الى الثوريين الألمان ما هم في حاجة اليه من صالح المشورة ، فقزع الحلفاء وعملوا على إصلاح الخطأ الذي أوقعهم فيه قصر النظر ، فمدوا يد المعونة الى الرأسمالية الالمانية وأقرضوا ألمانيا قروضاً كبيرة . وقد وقعوا بذلك في مأزق ضيق لقُوا فيه القصاص الطبيعي ، إذ أن إصلاح الاقتصاد الالماني أحيا مطامع الطبقة الحاكمة في ألمانيا ، فانتبذت هذه معاهدة فرساي وتبوأت من جديد مركزها تحت الشمس .

أوربا الديمقراطية

تحالف الفاشية

وحمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية الناقمة . وأخذ النازي بيده أعنّة الحكم ، فملأ الطرب جوانح تشمبرلن ودلاديه ومن لفّ لفهما ، فقد كانوا يرون في الهتلرية حاجزاً منيعاً دون البلشفية ، وقد طرقت مسامعهم صيحات النازيين لانتزاع أكرانيا من الاتحاد السوفييتي وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب النازية المقبلة على بلادهم فهنّأوا هتلر وحيّدوه ، ومن ذلك ما كتبه لويد جورج في جريدة التيمس الصادرة في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول : « إذا أفلحت الدول في محق النازية في ألمانيا ، فما الذي سيكون بعد ؟ إنه لن تكون ثمّ حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الأحرار ، بل حكومة شيوعية متطرفة . ولا يمكن أن يكون هذا هو الغرض الذي ترمي اليه هذه الدول ولا ريب » .

تغير الموقف في أوربا تغيراً تامّاً ، وكذلك تغير الموقف في الشرق الأقصى نتيجة لذلك ، فان اليابانيين الذين كانوا في حرب التدخل آخر من جلا عن الأراضي السوفييتية ، عثروا في ألمانيا على الحليف الذي كانوا ينشدونه ليكرهوا الاتحاد السوفييتي على القتال في جبهتين ، فتتابعت حوادث الحدود ، بين القبائل اليابانية والسوفييتية ، وبدأت فترة الاعتداء . وأصبح من العبث أن تتمسك الحكومة السوفييتية بسياسة فترة ولّت وانقضت ، ولذلك استبدلت بسياسة مواثيق عدم الاعتداء الفردية سياسة مقاومة جماعية تنتظم الدول المهدّدة ، لأن السلم لا يتجزأ ، ونادى مكتب الدولية الشيوعية بـ « الجبهة الشعبية لمكافحة الفاشية وصون السلام » . وانتظم الاتحاد السوفييتي في سلك عصبة الأمم في سبتمبر ١٩٣٤ وأصبح مركز الثقل في عالم السياسة ، وبلغت السياسة السوفييتية في مسايرة الواقع والصلابة في الحق ورعاية أصول الخلق الدولي شأواً بعيداً لا سبيل معه الى الموازنة بينها وبين سياسة غيرها من الدول ، تلك السياسة التي عبّدت لألمانيا السبيل الى شنّ الحرب .

تعطف الاتحاد السوفييتي رداء عصبة الأمم وأدحض مفتريات النازية والفاشية وأوضح أنهما أعظم خطر يتهدد الحضارة ودعا إلى التدرع بـ (الضمان الجماعي من الاعتداء) فأبت الدول الرأسمالية أن تنظر الى الأمر من ناحيته الموضوعية ، وأخذ أعداء الثورة يصخبون بأن هذه الأحداث والتطورات إن هي إلاّ نُذُرُ شرٍّ بأحداث مشئومة .

ويحسن أن نذكر هنا للدلالة على الروح الذي كان يسيطر على تفكير عامة الغرب ما أورده دُدْ سفير أمريكا في برلين في مذكراته بتاريخ ٦ مايو ١٩٣٥ : « كتب إليّ لورد لوذيان في ذلك رسالة تلقيتها اليوم . . . وقد أبدى في جلاء أنه يودّ أن تتحد الديمقراطيات لصدّ أية حركة توجه نحوها ولتحويل اتجاه النشاط الألماني نحو الشرق . ويبدو أنه لا يكرُه كثيراً أن يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا ، بل يبدو أنه يرى في نشوبها حلاً حسناً للمصاعب التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا . ومشكلة الديمقراطيات في رأيه هي أن تجد لليابان ولألمانيا مكاناً أمكن في إدارة شؤون العالم ، وهو ما تؤهلهما له قوتهما وتقاليدهما ، وهو يأمل أن يكون في الوسع القيام بذلك دون أن تبذل الأمبراطورية البريطانية أية تضحية وبأقلّ ما يمكن من خنق الحرية الانسانية »

كان على رأس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت سياميّ صوّر له نظره القصير أن أعين النازي مسدّدة نحو المشرق فبعث ذلك فيه الرضا فقصّر في تسليح بلاده ، منتظراً في بلادة واطمئنان أن تستعر نار الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي فيكفيانه أنفسهما بأهون الطرق ، بل إنه في الواقع أخذ يحالف دول المحور ويُغضي عن اعتداءاتها المتوالية وما فتئ يُنشد آلة السلامة الجماعية ويقيم العقبات في سبيل الاتحاد السوفييتي كلما سعى الاتحاد الى صون السلام .

فعندما عقد الاتحاد السوفييتي وفرنسا في سنة ١٩٣٥ ميثاق التساعد على المعتدي وسجلتاه في عصبة الأمم أبت بريطانيا أن تشارك في ذلك وحلت صحفها على الميثاق حملة منكرة .

وفي تلك السنة نفسها عقدت بريطانيا وألمانيا ميثاقاً خاصّاً بأسطوليهما البحريين ، وأباحت لها فيه أن تبني من الغواصات ما تشاء دون التفات الى مصالح فرنسا ومع ما في ذلك من نقض للوعد الذي قطعته على نفسها للعصبة ومن دلالة على أنها غيرُ جادّة في مكافحة الفاشية وغير راغبة في أن تصير العصبة قوة حقة .

حرب الحبشة

وسرعان ما أعقب ذلك وثوب ايطاليا على الحبشة في ٣ اكتوبر ١٩٣٥ فأعلنت الحكومة السوفييتية أنها مستعدة لتنفيذ كل ما تتخذه العصبة من قرارات لمساعدة الحبشة غير أن سائر دول العصبة ، وفي مقدمتها بريطانيا ، أظهرت كل ما استطاعت أن تظاهر به من عجز عن معاقبة الدولة المعتدية عقاباً إيجابيًّا رادعاً كإقفال قناة السويس في وجهها أو عقاباً سلبيًّا ناجعاً كمقاطعة صادراتها مقاطعة تشل اقتصادياتها المرتكة ، والامتناع من إرسال زيت البترول اليها ، وهو ما كان يؤدي على الأرجح الى أفول نجم موسوليني سريعاً وانهيار النظام الفاشي وهذا ما لم تكن تريده الحكومة البريطانية في ذلك الوقت .

وقد بسط مستر تشرشل أخيراً موقف بريطانيا من حرب الحبشة في النداء الذي وجهه في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ الى الشعب الايطالي يدعوه الى نبذ موسوليني والى اتباع بيت سافوا ، قال :

« إننا في حرب معكم ، فيالها من كلمة غريبة مروّعة ! من كان يظن قبل الأعوام القليلة الأخيرة أن الأمتين البريطانية والايطالية تحاول كل منهما أن تقضي على الأخرى . . . كيف كان هذا ولِمَ كل هذا ؟ أيها الايطاليون ، سأصارحكم بالحقيقة : إنما هذا كله من أجل رجل واحد . . . أما أنه رجل عظيم فاني لا أنكر ذلك . كذلك لا ينكر أحد أنه بعد ١٨ عاماً تمتع فيها بالسلطان المطلق قاد بلادكم الى حافة الدمار الرهيب . . .

فما هو الدفاع الذي قُدِّم تسويغاً لهذا العمل ؟ هو ولا ريب تلك المشاحنة حول العقوبات وصألة الحبشة ، فلننظر في ذلك . . .

جاءت الحبشة وقرعت الباب طالبة الانضمام في عضوية العصبة فقدّمنا نحن لعيجتنا ألاّ يكون ذلك ، فقد كنا في شك من وصول الأحباش الى مستوى من التقدم يسوّغ ضمهم الى مثل هذا الميثاق الخطير ، ولكن كان صنيور موسوليني هو الذي أصرّ على أن

تكون الحبشة عضواً في العصبة ... وإني لأصارحكم بأنه لم يحدث شيء في تلك المشاحنة الحبشية يمكن أن يكون سبباً أو موضوعاً لهذا الكفاح الرهيب . . .

وهذه هي الرسالة التي أرسلتها الى سنيور موسوليني : الآن وقد توليتُ رياسة الوزارة ووزارة الدفاع ، أصارحكم بأني لم أكن في يوم من الأيام عدوًّا لعظمة ايطالية ولم أكن في قلبي عدوًّا لايطاليا . . . » الخ

أجل ، علت في انجلترا صيحات شعبية كثيرة تندّد بالاعتداء الايطالي ، بيد أن الحكومة البريطانية لم تقاوم هذا الاعتداء ، بل لقد بذلت ما في وُسعها لمعاضدته وفقاً لاتفاق سنة ١٩٢٥ . وتأثرت الكاي دور ساي (وزارة الخارجية الفرنسية) وزارة بريطانيا في الاقتصار على معارضة موسوليني معارضة صورية ، بل هي قبلت أن تحمل تبعة الفشل والتهاون فأتاحت للوزارة البريطانية أن تتبدّى في صورة الملك البريء الذي يريد أن يعمل ولكنه يُلقي نفسه عاجزاً عن العمل . لقد كانت فرنسا تأمل بتهاونها المزري في المسألة الحبشية أن تجد من موسوليني نصيراً على هتلر ، ولكنه ما كاد ينتهي من ازدراد الحبشة حتى انتبذ فرنسا كما ينتبذ الإنسان ليعونة معصورة ، فعادت من جديد إلى الارتماء بكلّيتها في أحضان بريطانيا . وقد اضطرت الوزارة القومية قبيل انتخاب مجلس العموم الى أن تُحل سير صموئيل هور محل سير جون سيمون الذي كان قد أسخط الشعب بتأييده ايطاليا. وقد طلب صموئيل هور ولافال أن تمنح العصبة ايطاليا بالمعتدية وأن تعيّن لجنة من الخبراء ترسم الخطة الصالحة لمعاقبتها عقاباً رادعاً ، فاستقرّ رأي الخبراء على أن تمسك الدول عن إصدار الالومتيوم إليها ، وهو المعدن الذي تستنبطه إيطاليا من مناجمها وتُصدر منه الى الدول ما يفضُل عن حاجتها . بيد أن الانتخابات ما كادت تنتهي في مصلحة الوزارة القومية حتى أعلن مشروع هور — لافال في ديسمبر ١٩٣٥ وهو يمنح موسوليني قسماً كبيراً من الحبشة ويجعل الباقي منطقة للنفوذين البريطاني والفرنسي . وقد أثار هذا المشروع سخط الشعب البريطاني حتى لقد طرد صموئيل هور من الوزارة .

لقد كان في وُسع الوزارة البريطانية أن ترسل الى أهالي الحبشة ما يحتاجون إليه من مال وعتاد بدلاً من تركهم للايطاليين يجندونهم لمقاتلة البريطانيين وإجلائهم عن الصومال

البريطاني . وكان في وسعها ، وهي المسيطرة على مدخلي البحر الأحمر ، أن تمنع الأمداد عن أولئك الـ ٣٠٠و٤٠٠ من قطّاع الطرق وعمال الطرق بدلا من أن تتركهم يقطعون عليها طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن إثارتهم العرب عليها ليقطعوا الطريق البرية التي تبدأ من الخليج الفارسي الى قناة السويس مارّة بالعراق وشرق الاردن وفلسطين .

وهكذا استمرّت الحرب الظالمة التي لم يُرد أحد منعها ، حتى فتح الجيش الايطالي العاصمة أديس أبابا في ربيع ١٩٣٦ . وقد قال مستر إيدن وزير الخارجية ، في مجلس العموم في ١٨ يونيو ١٩٣٦ « يجب علينا أن نعترف أن الغرض الذي قصدنا اليه من فرض العقوبات لم يتحقق ، وليس من الضروري أن ندلي بتفصيلات عن أسباب ذلك ، ولكن أحد تلك الأسباب أن ذوي الرأي من رجال الحرب في معظم الدول أساءوا التقدير إذ حسبوا أن هذا النزاع سيدوم أطول كثيراً مما كان ... » . ومعنى هذا أن الذين فرضوا العُقوبات لم يكونوا يريدون بها وقف الحرب الاعتدائية ، بل كانوا يبغون بها إطالة أمدها . وقد أجاد أحد الصحفيين إذ كتب متهكماً أن مستر إيدن قد شكا من « أن هؤلاء الزنوج الملعونين خانوا واجبهم نحو الإمبراطورية لكي ينقذوا عصبة الامم » .

حرب إسبانيا

وما أسرع ما انكشف الستار عن مأساة إسبانيا التي لعب هتلر وموسوليني أهم أدوارها . لقد استوَرَت نار الحرب الأهلية في تلك البلاد في يوليو ١٩٣٦ فقد تنصر ضباط الجيش من الإصلاحات التي قامت بها الحكومة الجمهورية التي تلت دكتاتورية بريمو دي ريفيرا ووجدوا في ذلك غضّا من مركز أُسَرهم في المجتمع . إذ كان الضباط في العهد الملكي يختارون من أبناء الأشراف الأقطاعيين وكبار الملاك والصيارفة . فرمت هذه الطائفة من أصحاب الامتيازات — كما هي العادة — في أحضان مستعمر أجنبي ، في أحضان موسوليني الذي لم يكن قد تكشّف بعد عن طبل أجوف . وقام الضباط العصاة بالفتنة فانبرى لهم عمال المناجم والمصانع متسلحين بما استطاعوا أن يحصلوا عليه من السلاح

ودافعوا عن وطنهم وطبقتهم أعنف دفاع ، وناهيك بما أحلقوه بالايطاليين من الهزيمة التاريخية في وادي الحجارة .

وقد كان ثمّ خطرٌ أن تحتلّ جيوش هتلر وموسوليني جبال البرانس ، حتى لقد طالب أركان حرب الجيش الفرنسي ببناء خط ماجينو في البرانس ، كما كان احتلال الجنود الايطالية لجزائر البليار يهدد طرق فرنسا البحرية الى مستعمراتها في إفريقيا . ومن الواضح أن ايطاليا لم تنفق وحدها ٤ ملايين من الليرات دون أن تكون لها أطماع خاصة (كان سعر الليرة إذ ذاك ١٠٥ قرش ، أما الآن فهي لا تساوي كثيراً) . ولكن وزارة الخارجية البريطانية القابضة على دفة السياسة الخارجية الفرنسية ، كانت تنظر في سرور الى هذا العصيان المسلح ، فكلما نشا الدمار في اسبانيا أصبح جبل طارق أقل تعرضاً للهجوم عليه من البر الاسباني ، وكانت تأمل أن تسيطر على اسبانيا فيما بعد بما تستطيع أن تبذل لها من قروض يعجز موسوليني عن بذل مثلها ، فهي تترك دافعي الضرائب الايطاليين يدفعون نفقة ذلك العصيان المشئوم لكي تجني هي ثمرته وأرباحه بمهارة الصيرفيّ القدير ، ولذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تتدخلا في النزاع (دون أن تأبه بريطانيا لما نال بعض رعاياها من اعتداء وما أصاب تجارتها من كساد) وهذا الإمساك عن التدخل يذكرنا بإمساك الشيطان « مفيستو فيليس » عن التدخل في المبارزة بين فاوست وشقيق عشيقته مرجريت [1] . ولما تدخّل الاتحاد السوفييتي في الأمر بعد ذلك لمصلحة الحكومة التي انتخبها الشعب ، أيدت حكومتا بريطانيا وفرنسا تضجرهما من هذا التدخّل . وقد شرح ستالين سياسة الدول الديمقراطية في الامتناع من التدخّل ، فقال « قد يفسرون سياسة عدم التدخّل على النحو الآتي : فلندع كل دولة تذود عن نفسها قدر استطاعتها فليس هذا من شأننا ، وسنتجر مع المعتدين وضحاياهم على السواء . إن هذه السياسة ، من الناحية العملية ، إن هي إلاّ إغضاء الطرف عن الاعتداء وإرخاء العنان للحرب ، ومن ثمّ تحويل الحرب الى حرب عالمية » .

وقد لاذ ستالين بالدعة ، رغبةً منه في ألاّ يفسد سياسته مع الغرب ، ولم يحرّك ساكناً إلاّ بعد أن صار من الجليّ أن ايطاليا وألمانيا تتدخلان في الأمر . وكان يعلم أن انتصار الفاشيين

(١) في رواية « فاوست » تأليف جوته

في اسبانيا يعرّض حليفته فرنسا للأخطار، فشرع يرسل الخبراء الحربيين السوفييتيين إلى الجيش الجمهوري. وأخذ الشيوعيون يكتسبون الكتائب من شتى الأمم لمقاتلة البغاة، فأبدى سادة انجلترا وفرنسا استياءهم من هذه اليقظة السوفييتية وأعلنوا اقتناعهم بأن ألمانيا وايطاليا إنما تقاتلان دفاعاً عن الحضارة الغربية. وهكذا اندفع حكام الدول الديمقراطية يخدمون أبعد أغراض خصومهم عن الديمقراطية.

وبينما كان الجمهوريون الاسبانيون ينادون أن افتحوا الحدود وساعدونا بالعتاد، كانت السيتي city (دوائر أصحاب رؤوس الأموال في لندن) تبدي عطفها على فرنكو صراحةً، وكان الرجعيون الانجليز والفرنسيون، وفي مقدمتهم تشمبرلن وبونيه، يتحرّقون رغبةً في أن يروا ذلك الدفاع المفعم بالبطولة قد انقضى. وقد دأبت الصحف الرجعية في بريطانيا وفرنسا تحض الجمهوريين على إلقاء السلاح وتذيع أنباء خلافات تزعم اضطرام نارها بين رجال الحكومة الجمهورية، وكانت في بعض الأحيان تلتمس من الحكومة البريطانية أن تسعى بالوساطة بين الفريقين.

وسار هتلر في طريقه قُدُماً فانقضّ بجيوشه على الجمهورية النمسوية. فلما اقترح الاتحاد السوفييتي بهذه المناسبة في ١٧ مارس ١٩٣٨ أن تعقد الدول غير المعتدية مؤتمراً يعمل على توطيد السلام، أبت ذلك بريطانيا وفرنسا.

وانتقل مسرح المأساة الى تشكوسلوفاكيا، فألقى هتلر في مؤتمر الناتسيين بنورمبرج خطاباً حمل فيه على تلك الجمهورية الصغيرة حملة منكرة وتهدد الدول الضامنة لها وأعلن أنه قد اعتزم « حماية » السوديت (الذين نزح أسلافهم من ألمانيا الى الجنوب) وكان ذلك الخطاب إشارة الهجوم، فهبّ السوديت يهاجمون مسالح الشرطة ودور البريد ومحطات السكك الحديدية ويطلقون الرصاص على أبناء الشعب الذي آواهم فأحسن مثواهم، وطفقوا يلوّحون الأيدي برسم الـ « صفاستكا » (الصليب المعقوف) وأبى زعيمهم هنلاين قبول ما اقترحته براج من مشروعات يراد بها تنظيم حقوق الأقليات، ودأب يثير الشغب، مثلاً في تشكوسلوفاكيا الدور الذي مثله فرنكو في اسبانيا وسايس إنكوارت في النمسا.

وسنت الحكومة التشكوسلافية الأحكام العرفية، ووقفت بتأثير الرأي العام في بلادها

وفي العالم موقناً حازماً فالتاث الأمر على هتلر .

ولم يسع تشمبرلن أن يقف ساكناً في هذا المأزق الذي زجّ بنفسه فيه ، فبادر بالرحيل الى مقر « الزعيم » في برشتسجادن ليقيل عثرته وليقر إجراء استفتاء بين السكان . لقد كانت سياسة انجلترا ، وسياسة فرنسا تبعاً لها ، قائمة على التسليم للمعتدين ، تسليم تشكوسلوفاكيا لألمانيا ، وتسليم فلسطين للصهيونيين ، وتسليم الأسكندرونة لتركيا ، وتسليم مقاليد بلادها للرأسماليين . وقد كان هتلر على علم بذلك وكان يعتمد على ضعف الروح المعنوية في الحكومات الرأسمالية الديمقراطية أكثر مما يعتمد على قوته الحربية .

وقد أعلن الرفيق كالنين رئيس الاتحاد السوفيتي في ١١ مايو ، وأعلن سفير الاتحاد السوفيتي في الولايات المتحدة الأمريكية في ٢٥ أغسطس ١٩٣٨ أن الاتحاد السوفيتي غير ناكل عن تنفيذ عهوده لفرنسا وتشكوسلوفاكيا بنصها وروحها ، ولكن هذا القول لم يلقَ أذناً واعية . فلما استظلت الأزمة بعد ذلك في النصف الأول من سبتمبر ، اقترح الاتحاد السوفيتي في جنيف أن يقوم هو وبريطانيا وفرنسا بعمل مشترك لمصلحة التشك وأن تطبق المادة ١١ من ميثاق عصبة الأمم ، بيد أن بريطانيا وفرنسا وقرّت آذانهما عن استماع هذا الصوت مرة أخرى .

مؤتمر ميونخ

وعقدت ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا مؤتمراً رباعيًّا في ميونخ ، مغفلين دعوة الاتحاد السوفيتي اليه ليحبطوا بذلك سياسة التعاون بينه وبين الدول الغربية ، وقد داست بريطانيا وفرنسا على عهدهما لتشكوسلوفاكيا وأبتا أن تحاربا من أجلها متآزرتين مع الاتحاد السوفيتي . وطابت أنفسهما أن يقدما ، عربوناً لصداقة ألمانيا المنشودة ، حليفتهما الصغيرة التي كانت بجبالها البوهيمية وتحصيناتها الحديثة وتسليحها الكامل ، سياجاً منيعاً يحول بين ألمانيا والتقدم نحو الشرق .

وتسلّم الجيش الألماني خط التحصينات العظيم المشيد على صورة خط ماجينو واطلعوا

فيه على كل أسرار خط ماجينو . قال موريس توريز في خطبة له «إن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ سيكون في التاريخ ذكرى غصة لا تقطع خيانة للشعب الفرنسي ، ارتكبتها حكومة جمهورية تعوه ونحو السلام والديمقراطية .... إن أولئك الذين كانوا يصلوننا نار الحرب ونحن نقاوم أخطاء معاهدة فرساي وما يمكن أن ينجم عنها من أخطار قد راحوا اليوم يؤيدون هتلر ويقرون مطالبه . إن تشمبرلن يريد أن يجعل من هتلر حارساً لأوربا الرأسمالية الجديدة في وجه الطبقة العاملة والاتحاد السوفييتي . ألا فاسمعوا ما تقوله جريدة لجور ، تقول : إن مزية هذا الاجتماع الأساسية هي أن الاتحاد السوفييتي قد حرم حق الاشتراك فيه ، ولن يكون أكثر من هذا العمل لإبعاد الاتحاد السوفييتي عن أوربا ورجعه الى آسيا والى نضالاته الداخلية » .

لقد تردّت فرنسا في حضيض الخزي والاستكانة إذ أظهر وزير خارجيتها برنيه استعدادها للتخلي لألمانيا عن نفوذها في شرق أوربا وأقرّ فون ريبنتروب على أن الاتفاق الذي عقدته هي والاتحاد السوفييتي إن هو إلاّ « استمرار لسياسة فرساي التطويقية » . أما بريطانيا فقد كانت ما تزال في غفوتها سعيدة بحلمها اللذيذ أن هتلر لا يريد أكثر من أن يعيد سائر أبناء «شعب السادة» Herrenvolk الى أحضان بلاده ، يسيطر عليها اعتقادها المريح بأن « السلم يسود وقتنا هذا » . وهكذا ألقى الاتحاد السوفييتي نفسه في خريف ١٩٣٨ بلا حلفاء ، وكان الخطر محدقاً به ، فلم يستطع أن يفعل لتشكو صلوفاكيا شيئاً .

وحرّكت « ميونخ » شهية ألمانيا إلى أن تزدرد دولاً جديدة ، واحدة بعد أخرى ، على أن يسوى الأمر في ميونخ ثانية وثالثة ، فأخذت ترفع الصوت عالياً مطالبة بما كان لها من مستعمرات وطفقت تتحدث عن أكرانيا وتبذل نشاطاً خبيثاً بين الأكرانيين الذين لفيظهم الثورة الى برلين . بل إن إيطاليا نفسها ملأت الجو بعواء «أبناء آوى» تطالب بأن تمنح إقليم سافوا وجزيرة كورسيكا وتونس وامتيازات في قناة السويس ، وبأن تنزل فرنسا لها عن سكة حديد أديس أبابا — جيبوتي . على أن الأمر لم يقف بالألمان عند حد الأحاديث ، فقد تحرّك الجيش الألماني في منتصف مارس ١٩٣٩ واجتاح ما كان قد بقي من دولة التشك ، فبدّد جميع دبلوماسيته في براج أحلام إنكلترا وفرنسا في لندن وباريس ، حتى إذا ما أتم الفيرر Führer ابتلاع

تشكوسلوفاكيا افتضح الميونخيون الذين كانوا يتشدّقون بأن الحل الذي جادت به ميونخ ظفرٌ لسياسة « المنطق والروية » ، فأخذوا يعصرون أعينهم ويجاهرون بأن عهود هتلر إن هي إلاّ قصاصات من الورق لا وزن لها ولا يصح بعد أن يركن اليها . ومع ذلك وقف سير جون سيمون ، أسوأ من ولي وزارة الخارجية البريطانية ، في مجلس العموم يوم ١٥ مارس وهو اليوم الذي اغتصبت فيه براج ، وطفق يندد بسياسة الضمان الجماعي الذي كان هو المخلّص الوحيد مما وقعت فيه أوربا الديمقراطية . ولم يدع هتلر الوقت يمر سدًى ، بل وجه الى رومانيا إنذاراً بأن تبيع من ألمانيا كل ما تنتجه من زيت الوقود ومن المواد الغذائية ، على أن تأخذ في مقابل مصنوعات ألمانية ، ويطلب اليها أن تقصر جهودها على إنتاج المواد المطلوبة منها وأن تتخلى عن كل مسعى لأن تكون دولة صناعية ، ويعدها في مقابل قبول هذه الطلبات بأن « يضمن حدودها » ، وذلك يعني في لغة المغتصبين أنها إن أبت أضحت حدودها بلا ضمان .

وذهب سفير بريطانيا لدى موسكو في ١٨ مارس ١٩٣٩ يبلغ الحكومة السوفييتية أن لدى دولته من البواعث ما يحملها على الخوف من أن تهاجم ألمانيا رومانيا ويسألها ما عسى أن يكون موقفها بإزاء هذا التهديد ؟ فكان جوابها أن قدّمت مقترحاً يشبه المقترح الذي قدّمته عقب غزو المانيا للنمسا في مارس ، والذي لو قبلته بريطانيا وفرنسا لما كان ثَمّ ميونخ ، كما أنه يشبه المقترح الذي قدّمته عندما احتدمت الأزمة التشكوسلافية فكان نصيبه الردّ . كذلك اقترح الاتحاد السوفييتي في هذه المرة أن يعقد بخارست في الحال مؤتمر صداسي يضم ممثلي بريطانيا وفرنسا وبولونيا ورومانيا وتركيا والاتحاد السوفييتي للنظر في الأمر والبتّ فيه .

لو أن هذا المقترح ظفر بالقبول لما كانت الحرب في تلك السنة لأن هتلر كان معمراً على أن يتجنب الحرب في جبهتين كما ثبت ذلك من تصرفاته التالية ، إذ أنه لم يشن الحرب على الاتحاد السوفييتي إلاّ بعد أن سدّ الطريق اليه بافتتاح البلقان وكريت وبالاتفاق مع تركيا . وقد استمرّ بعد ذلك يحارب في جبهة واحدة هي الجبهة الروسية ، فاذا حدث بعد ذلك أن وقعت حرب في جبهة ثانية فسيكون ذلك نتيجة شيء واحد هو سوء تقديره لقوة (الاتحاد

السوفييتي) ، ولكن مستر تشمبرلن كان ما يزال راغباً في إطلاق يد المانيا في الشرق ، فلم يقبل هذا المقترح زاعماً أن المؤتمرات تستغرق وقتاً في حين أن الأمر يحتاج الى سرعة في العمل ، وآنذاك اقترحت بريطانيا أن تدلي هي وفرنسا والاتحاد السوفييتي وبولونيا بتصريح مشترك . فاذا كان يتضمنه ذلك التصريح ؟ لقد كان يتضمن — على ما نشرته التيمس في ٢٣ مارس — « اتفاقاً على المشاورة إن حدث ما يدعو اليها » وهو تصريح رنّان ولكنه لا معنى له ، بل هو يعني إعلان أن بريطانيا لا تنوي أن تفعل شيئاً . ومع ذلك أبدى الاتحاد السوفييتي رغبته في أن يوقع على هذه الوثيقة رؤساء الوزراء ووزراء الخارجية ، بيد أن الحكومة البولونية ، أبت أن يوقع ممثلوها على أية وثيقة تحمل توقيعات زعماء الحكومة السوفييتية ، وهكذا اختفى الموت هذا المسعى ساعة ميلاده . وذاقت بولونيا ثمار حماقتها بعد أشهر معدودات .

وقد رأت الحكومة السوفييتية أن تحاول التفاهم مع الدول الديمقراطية مرة أخرى ، فاقترحت في ١٧ أبريل أن تعقد هي وبريطانيا وفرنسا ميثاقاً ثلاثياً لمقاومة الاعتداء حيث يكون ، فتجاهلت بريطانيا هذا المقترح .

ورأت المانيا أن تدعم مركزها بالعودة موقتاً الى سياسة فيمر الذهبية[1] ، سياسة التعاون مع الاتحاد السوفييتي في الشؤون الاقتصادية والسياسية ، وانصرفت عن التغرير ببولونيا وحفزها الى اقتطاع قسم من أكرانيا . وعرضت على الاتحاد السوفييتي في أوائل سنة ١٩٣٨ أن تعقد معه معاهدة تجارية تقرضه بمقتضاها ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مارك فأبى ، فأعادت المانيا اليه مقترحها معدلاً في أواخر تلك السنة .

وأراد الاتحاد السوفييتي أن يحذّر بريطانيا وفرنسا التحذير الأخير فأعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية أمام مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان) في ٣١ مايو ١٩٣٩ أن بلاده على وشك أن تدخل مع المانيا في مفاوضات . ولكن الدولتين الرأسماليتين لم تستطيعا أن تتصورا أن هتلر سيوجه اليهما ضربته الأولى ، وحسبا أن البلاشفة يقومون بمداورات يبغون بها رفع ما يتقاضون من ثمن ، فوضعا أصابعهما في آذانهما وأصرّا على تجاهل دعوة الاتحاد السوفييتي إياهما الى محالفته ، كما أنهما لم ييأسا من إمكان التفاهم مع المانيا وايطاليا

(١) وهي المدينة التي وضع فيها الدستور الالماني بعد الحرب العالمية الاولى

مفاوضة بريطانيا
والاتحاد السوفييتي

بيد أن الشعب الإنجليزي ثارت ثائرته وأكره وزيره الأول على أن يفاوض الاتحاد السوفييتي لتنظيم جبهة سلام عملية في وجه الاعتداء . على أن الوزير لم يكن يريد أن يصل الى نتيجة ، ولهذا اختار لتمثيل بلاده موظفاً صغيراً وزوّده بأسرأ النصائح والإرشادات. اقترح ممثلو الاتحاد السوفييتي إقامة جبهة منه ومن بريطانيا وفرنسا وكذلك من بولونيا إن أمكن ، على أن تقدم كل من هذه الدول مساعدتها للأخريات . فأما بريطانيا فقد تحامت الإشارة الى المساعدة المتبادلة وطلبت الى الاتحاد السوفييتي أن يبادر الى إنجاد بريطانيا وفرنسا إذا اشتبكتا في حرب تحقيقاً لضمان استقلال بولونيا ورومانيا ، دون أن تشير الى أنهما أيضاً تقومان بمساعدة الاتحاد السوفييتي إذا اشتبك في حرب تحقيقاً لضمان استقلال دول أوربا الشرقية ، وبذلك ، كما قالت صحيفة إزفستيا ، « نرى أن الاتحاد السوفييتي لن يكون — نتيجة للمقترح البريطاني — على قدم المساواة مع بريطانيا وفرنسا . وهنالك أمر على جانب كبير من الخطر ، ذلك أن الرد على الاعتداء سيكون منوطاً بقرار من بريطانيا وحدها ، أو من فرنسا وحدها ، مع أن الاتحاد السوفييتي — بسبب وضعه الجغرافي — هو الذي سيتحمل عبء العمل في هذا الرد » .

***

وقد نشرت صحيفة برافدا في ٢٩ يونيو مقالاً هامًّا بقلم زدانوف Zhdanov رئيس لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان السوفييتي والسكرتير باللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، تضمن إنذاراً صريحاً لحكومات الدول الديمقراطية الغربية ، وقد أوضح فيه أن البريطانيين والفرنسيين ليسوا خالصي الرغبة في عقد ميثاق بالمساعدة المتبادلة ومقاومة الاعتداء اتفاقي مقاومة حقة ، وذكر أنه من بين الخمسة والسبعين يوماً التي استغرقتها المفاوضات ١٦ يوماً

قضاها الاتحاد السوفييتي في إعداد أجوبته ومقترحاته في حين أضاع الفرنسيون والبريطانيون ٥٩ يوماً . وأنهم حكومتيهم بأنهما تريدان عقد ميثاق ذي ناحية واحدة ، يلزم الاتحاد السوفييتي بمساعدتهما عند الحاجة دون أن يقيدهما بتقديم أية مساعدة في مقابل ذلك «وهو ميثاق لا يمكن أن توقع عليه دولة تحترم نفسها» .

***

وقد علّق لويد جورج في جريدة سنداي اكسبريس على سير المفاوضات ، فقال في عرض كلامه « تسير مفاوضاتنا مع روسيا منذ ٤ أشهر متلكئة ، وهي تبدو الآن بعد هذا الزمن الطويل أسوأ مما كانت حين ابتدأناها ... والحقيقة التي أراها أن مستر تشمبرلن ولورد هليفكس وسير جون سيمون يكرهون الاتفاق مع روسيا . ولولا ذلك لما أشخصوا للمفاوضة كاتباً من كتبة وزارة الخارجية . وقد كان على مستر تشمبرلن أن يقصد بنفسه الى موسكو لعقد الاتفاق ، وإنه لموفور النشاط جم الحركة ، سافر قبلُ ٣ مرات الى ميونخ وتوجّه بالزيارة مرة الى موسوليني ليبشره بالاعتراف بفتحه للحبشة وليطمئنه على مصير إسبانيا ، فلِمَ لا يسافر بنفسه الى روسيا ولِمَ لا يسافر لورد هليفكس أيضاً ؟» .

وقد اقترح البلاشفة على بريطانيا أن ترسل اليهم بعثة حربية ، وكانت أزمة دانتسيج تتفاقم باطراد وكانت سائر الاحوال والملابسات تجعل إرسال هذه البعثة في الدور أمراً لا مندوحة عنه ، غير أن البعثة لم تحفز للسفر الا في ٥ أغسطس ثم إنها انتخبت لرحلتها أطول الطرق حتى إذا ما ألقت رحالها تبين أنها لا تملك حق البت في أي أمر ، ومن ثم كان عليها أن تتصل بحكومتها في كل ما يعرض لها ثم تنتظر تعليماتها .

وانتهى الامر بأن أبت حكومة بولونيا أن تقبل أي ميثاق يُتيح للجيش الاحمر أن يساعدها فوق أراضيها ، وأعلنت الحكومة البولونية أن بولونيا مستعدة وقادرة على أن تقاوم أي اعتداء ألماني دون مساعدة السوفييت .

***

بذل الاتحاد السوفييتي حتى ربيع ١٩٣٩ كل ما وسعه في سبيل السلم ، لا ينثنيه عن

ذلك ما تواجه به مساعيه من ردّ مهين وجحود شائن . لقد رؤيت الدول الديمقراطية (أو البلوتوديمقراطية كما كان يسميها هتلر إشارة الى أنها محكومة برأس المال) في السنوات السابقة للحرب بسلامة حتى وغيرت صدورهم على الاتحاد السوفيتي فعميت القلوب فقصروا عن إدراك مرامي الفاشية وكلّت أبصارهم عن رؤية الخطر الزاحف على بلادهم فظلوا يقهقرون في شبه غيبوبة مصرع الديمقراطية في أوربا ، ويرون في هدوء جمهوريات النمسا وتشكوسلوفاكيا وإسبانيا تسقط صريعة تحت أقدام أولئك الطغاة ، العاملين على بسط سلطانهم على العالم أجمع .

***

تفاقم قلق الكرملين في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فإن الميثاق الذي عقدته ألمانيا واليابان في نوفمبر ١٩٣٦ قد انتظم ايطاليا أيضاً في السنة التالية ، وظلّ الداعون الى مصادقة المحور يزعمون أن هذا الحلف لم يبدّل من حالة أوربا شيئاً ، ويُمسكون آذانهم عما أنذرهم به البلاشفة من أن هذا الميثاق المعادي للكومنترن ينطوي على تحالف مناوىء لبريطانيا وفرنسا . وقد استُبدلت بوزارة الجبهة الشعبية في فرنسا وزارة راديكالية . وأخذت معركة الصين تدور في غير مصلحة حليفة الاتحاد السوفيتي . وقد سعى ممثل تشمبرلن في ميونخ ، هو ومن معه من أنصار التهدئة ، لا في أن يقهروا التهديد الألماني ، بل في أن يحوّلوا اتجاه مجراه من الغرب الى الشرق ، وفي أن يمهدوا السبيل لاشتراك بريطانيا في شنّ الحرب على الاتحاد السوفيتي الى جانب ألمانيا ،

***

وقد أبى البلاشفة أن يحالفوا الناسي على الدول الديمقراطية ، فأما هذه فما فتئت تأبى العمل مع البلاشفة وتسعى الى إحباط جهودهم في سبيل الضمان الجماعي ، وظلت مستمسكة باعتقادها أنها تستطيع أن توجّه جيوش الفاشيين نحو الاتحاد السوفيتي بعد انتهائها من ابتلاع الشعوب الصغيرة . ولم يكفّوا عن مكافحة الاتحاد السوفيتي بالعدوان حتى بعد أن كبت الناسي عواطفه وسارع الى الاعتراف بحدود الاتحاد السوفيتي .

ميثاق عدم الاعتداء

يئس الاتحاد السوفييتي من الحلفاء بعد أن ظلوا يقابلون مقترحاته بالازراية والاحتقار وعلم أن الاستمرار في اتباع سياسة الضمان الجماعي التي لاقت خيبة مستمرة من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩ ، يعرّضه للاصطلاء بنار حرب صليبية يقف فيها وحيداً ويتألب عليه الجميع ، فلم يجد بدّاً من اهتبال الفرصة الأخيرة للتنكب عن طريق الحرب في هذا الطور من التاريخ الذي كانت الحرب الاستعمارية فيه موجهة الى الدول الديمقراطية التي أبت في إصرار أن تبسُط يدها اليه ، ولاتقاء خطر تحويل مكة حديد الحرب الى بلاده . لذلك أقدم على مفاوضة ألمانيا ، وكانت مفاوضة سهلة يسيرة تقوي فيها مركزُه بوجود وفد بريطانيا في موسكو . ولم يكن الألمان يريدون من الاتحاد السوفييتي غيرَ الحياد ، وكان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته على استعداد لعقد مواثيق بعدم الاعتداء مع كل دولة ترغب في ذلك . وهكذا أمضت الدولتان ميثاق عدم الاعتداء في ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ وبذلك بدأت فترة جديدة في حياة الاتحاد السوفييتي .

وارتجت الدول الرأسمالية الديمقراطية من هول الصدمة ، وهبت من سباتها وقد طرقت الحرب عليها الأبواب لتذيقها ثمار سياستها .

وقد أوضح مولوتوف الموقف في ٣١ أغسطس ١٩٣٩ بين يدي مجلس السوفييت الأعلى إذ كان يطلب اليه إقرار ذلك الميثاق ، فقال « ولما كانت المفاوضات (مع الحلفاء) قد أظهرت استحالة قَبولهم عقد ميثاق لمساعدة المتبادَلة ، لم يسعنا إلاّ أن نبحث عن وسائل أخرى ممكنة لتأمين السلم ولإزالة خطر اهتباك ا . ج . س . ا في حرب مع ألمانيا ، فإذا كانت حكومتا بريطانيا وفرنسا تأبيان الاعتراف بذلك فهما وشأنهما . أما نحن فواجبنا أن نفكر في مصالح ا . ج . س . ا ولاسيما أننا مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن مصالح ا . ج . س . ا تطابق مصالح شعوب البلدان الأخرى » .

لم يتخلّ الاتحاد السوفييتي بعقده هذا الميثاق عن شيء من مبادئه الماركسية — اللينينية ،

كما أنه لم يحد بالتزام الحياد الدقيق عن خطته في تأييد الشعوب التي يُعتدى عليها (كما أيد الاسبانيين الجمهوريين على الالمانيين والايطاليين وغاراتهم) وكما أيد الصينيين على اليابانيين ولم يكفّ عن تأييدهم حتى بعد أن عقد مع اليابان ميثاقاً بعدم الاعتداء ، وكما أبدى استعداده لتأييد انتشك على الالمان إذا وفت فرنسا بالتزاماتها نحو تلك الطليقة الصغيرة . .

ولا يدل وضع مولوتوف على رأس مفوضية الشعب لشؤون الخارجية في المكان الذي كان يشغله ليتفينوف — على الانثناء عن الاتجاه السياسي السابق ، فليس الاتحاد السوفيتي كالدول الرأسمالية يستطيع كل وزير أن يجري فيها على سياسته الخاصة أو سياسة الكتلة التي ينتمي اليها ، بل إن مفوضية الشعب لشؤون الخارجية تتبع السياسة التي تضعها الحكومة السوفييتية والحزب الشيوعي . وإنما كان هذا الحياد أمراً عارضاً اقتضته الملابسات السياسية الطارئة وحاجة البلاد الى « مهلة لتتنفس » فهو لا يعني الاخلاد الى السلم بل لعله أن يعني التأهب للحرب . وإنه لمن الخطأ أن يُقال إن الاتحاد السوفيتي قد شايع ألمانيا بعقد هذا الميثاق ، كذلك كان من الخطأ أن يقال إنه كان يشايع بريطانيا حين كان يعقد الضمان الجماعي وإنما الحق أنه كان ولا يزال يشايع شعبه ومبادئه وحدها .

لقد أظهر عقدُه هذا الميثاق يقظة السياسة السوفيتية وحذاقة الساسة الديمقراطيين ، أولئك الذين أبوا أن يحالفوا الاتحاد السوفيتي متجافين عن كل ما لهذا التحالف من المزايا التي اهتبلها منافسوهم الفاشيّون .

وقد تحرّم منذ عُقِد هذا الميثاق سنوات عِدّة ، فهي مقدورنا الآن أن نحكم على نتائجه حكماً مبرءاً عن الهوى :

(١) ربح الاتحاد السوفيتي بقاءه بعيداً عن لظى الحرب ١٨ شهراً ، ولولا انهيار فرنسا وحلفائها ذلك الانهيار السريع الذي لم يكن يتوقعه أحد ، لامتدّ وقوفه بعيداً عن الحرب زمناً بعيداً . وقد أكمل الاتحاد السوفيتي في هذه الفترة تأهّبه للقاء الغزو الالماني ، فإن ميثاق عدم الاعتداء لم يُزحزح الجيش الأحمر عن شعاره « كن دائماً على أهبة ! » .

وقد زاد الاتحاد السوفيتي عدد ساعات العمل اليومي واختزن ما يحتاج اليه من المواد ولا سيما ما يستورده من الخارج ، ونظم اقتصاده تنظيماً أكثر ملاءمة لأوقات الحرب .

(٢) أحسنت القيادة الحربية السوفييتية مراقبة الأسلحة والخطط الحربية الحديثة التي استخدمها الجيش الألماني في غزو بولونيا والأراضي الواطئة وفرنسا ، فأعدّت من الخطط الدفاعية ما يصلح لإحباطها (وذلك على نقيض ما فعل الجيش الفرنسي الذي لم يقتبس عبرة من غزوة بولونيا ، وركن إلى الزعم بأن انهيار بولونيا إنما كان من فساد الجيش البولوني واضمحلاله لا من تقدم الفن الحربي الألماني وارتقائه .

(٣) ضمن ا . ج . س . ا . اضطرار أمريكا الى خوض غمار الحرب في زمن مبكر بعض الشيء حتى لا تضيع الفرصة الأخيرة لإنقاذ بريطانيا كما أضاعتها مع فرنسا . وضمن أن تكون سائر الديمقراطيات في صفه عند ما يحين لألمانيا أن تنتهك حرمة الميثاق المعقود بينهما وتنقضّ على بلاده .

ولو أنه أبى أن يعقد هذا الميثاق لبدأت ألمانيا بحربه ، فقد كانت الحرب ضرورة ماسّة لهتلر ، وكان من الميسور له في تلك الحالة أن يظفر بمحالفة الدول الديمقراطية ، تلك الدول التي ظلت ٥ سنوات تأبى أن تعقد ميثاق الضمان الجماعي من المعتدي ، والتي أثبتت في كل فرصة أنها تتربص بالاتحاد السوفييتي شرًّا . ويجب ألاّ ننسى كذلك أن الحرب في الجبهة الغربية قد ظلت بعد انهيار بولونيا ٨ أشهر في فترة هدنة حقة كان من الميسور لهتلر والدول التابعة له أن يحاربوا خلالها . ا . ج . س . ا . وحده في حين يظل كل شيء هادئاً في الميدان الغربي .

(٤) وقد انتهز الاتحاد السوفييتي فرصة خلوّ الدول العظمى للحرب وتوطد نية ألمانيا على ألا تحارب في جبهتين ، فأزال حاجز كيملنو الصحي الذي ضربه الحلفاء حوله ، واستردّ الولايات ذات الخطر الاستراتيجي العظيم ، فتلقت عنه الصدمة الأولى الباغتة بدل أن تتلقاها لينينجراد ، وموسكو ، وستالينجراد ، فكانت تلك الولايات رصيفاً تكسرت عليه أمواج الهجوم الألماني الخاطف ، كما أنها منحت الاتحاد السوفييتي بعض الوقت اللازم لإتمام التجنيد العام ، وأتاحت له فوق ذلك أن يعيد الى أحضانه ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من أبنائه المشردين ليحاربوا معه بدل أن يساقوا الى محاربته .

غرب أكرانيا
لا شرق بولونيا

وينبغي لنا بهذه المناسبة أن نوضح ما قد يكون ملتبساً على بعض الناس في هذا الشأن:

ما كاد الجيش الالماني يجتاح بولونيا الأصلية ويقضي القضاء المبرم على جيشها ويلجيء حكومتها الى التأهب للفرار ، تلك الحكومة نصف الفاشية التي أبت في عناد أن تقبل أية معاونة من الجيش الأحمر، حتى بادر الجيش الاحمر في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ فاستعاد منها أكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية ، وهما اللتان كانت قد اغتصبتهما من بلاده ، كما أعاد الى لاتفيا البلاد التي كانت بولونيا قد اغتصبتها منها .

وسكان هذين الإقليمين من الروس البيض والأكرانيين (ويضم عدد كبير من اليهود) لا ترابطهم ببولونيا رابطة جنسية أو لغوية أو دينية، ولا تسمح العدالة ولا حق تقرير المصير بضمهم اليها، ولا يقر الضمير الإنساني الحر إبقاءهم في ربقتها . وقد استولت بولونيا على معظم هذه البلاد عقب الحرب مع الجمهوريات السوفيتية (وهي الحرب التي اغتصب فيها حاكم فيناء لندن من شحن الباخرة جورج الكه Jolly George بالاسلحة التي أريد إرسالها الى الجيش البولوني بمقتضى معاهدة ريجا التي عقدت في مارس ١٩٢١ . وظل سكان تلك البلاد ١٨ عاماً يتحملون — بوصفهم أقليات قومية — الإرهاق والعسف من حكومة نصف فاشية ويتعرضون للسلب والنهب من الإقطاعيين البولونيين الذين هم أجانب عنهم . وقد ذكر لويد جورج في كتابه « الحقيقة عن معاهدات الصلح » الصادر سنة ١٩٣٨ أن مذابح البولونيين قد بلغت في جاليسيا الشرقية سنة ١٩٣٠ (على أثر اشتداد أزمة سنة ١٩٢٩) — ولا سيما في اليهود — مبلغاً أثار ثائرة الشعب البريطاني ، وأن المذابح قد استغلظت بعد موت مارشال بلسودسكي في مايو ١٩٣٥ . وكتبت صحيفة منشستر جارديان في ١٠ اكتوبر ١٩٣٨ تقول . « تجري تهدئة pacification أخرى في أكرانيا البولونية منذ أوائل الربيع

المبكر . في خريف ١٩٣٠ هدّأت أكرانيا البولونية بسريّات من الخيالة البولونيين والشرطة الراكبة كانوا يتنقلون من قرية الى أخرى فيلقون القبض على الفلاحين ويضربونهم ويدمرون ممتلكاتهم . وبلغ عدد من ضربوا هذا الضرب آلافاً عدّة . أما في هذه المرة فإن التهدئة تتخذ طرقاً أخرى ، تتخذ صورة حملة عامة مستمرّة على التشكيلات الأكرانية السياسية والتعليمية والاقتصادية » .

***

وقد ظلّ الاتحاد السوفييتي مع هذا كله لا يحرّك ساكناً ، حتى امّحت بولونيا من الوجود ، فتقدّم لاستعادة بلاده المغتصبة المعذبة . وإن « قانون الضرورة » الذي طالما استندت اليه الدول الأخرى في تسويغ أعمالها ، ليسوّغ لدوره أن يدخل بيت جاره لإطفاء النيران قبل أن تلتهم بيته هو أيضاً ، أما هذه الولايات فلم تكن ملك جاره لأنها أقاليم رومية أكرانية ، ولأن ذلك الجار كان قد فارق الحياة . وهذا ما سلّم به ونستون تشرشل ، وكان وزيراً للبحرية ، في حديث أذاعه بالراديو في ٢ اكتوبر ١٩٣٩ إذ قال : « . . . أما الحادث الثاني في هذا الشهر فهو إثبات روسيا لمقدرتها ، فأنها قد اتبعت سياسة المنفعة الخاصة . . . ولكن وقوف الجيوش الروسية على هذا الخط كان بالبديهة ضرورياً لتأمين روسيا من التهديد النازي . وعلى أية حال فها هو ذا الخط الروسي هناك . تقوم عليه جبهة شرقية لا يجسر الألمان النازيون على اقتحامها .

. . . عند ما دعي فون ريبنتروب الى موسكو في الأسبوع الماضي كان ذلك لكي يفهم ويقبل الحقيقة التي هي أن خطط النازي المرسومة في بلاد البلطي وأكرانيا قد قضي عليها أن تضمحل وتزول . . . ولا يمكن أن يتفق مع مصلحة روسيا وسلامتها ترسيخ المانيا النازية لقدمها على شواطىء البحر الأسود ولا اجتياحها دول البلطي وإخضاعها الشعوب الصقلبية في جنوب أوربا الشرقي . وهكذا . . . أعلن في هذا المساء اقتناعي بأن الحادث الكبير الثاني في أول شهر من أشهر الحرب هو أن هتلر وكل ما يمثله هتلر تلقى إنذاراً واضحاً بالابتعاد عن شرق أوربا وجنوبها الشرقي » .

ولقد اختار الجيش الأحمر أصلح الساعات للعمل ، فلو أنه تقدّم ولو ٢٤ ساعة ، لكان

في ذلك مساعدة محسوسة للجيش الألماني ، ولو أنه ولّى ولو ٢٤ ساعة لسبقه الجيش الألماني الى الاستيلاء على تلك البلاد وتاخم حدود أكرانيا التي ما أكثر ما تغزّل فيها هتلر في كتابه « كفاحي » .

ولقد كان في حرمان الجيش الألماني من خيرات تلك البلاد ومن مواعد أبنائها نفع عظيم لبريطانيا وحلفائها ، بيد أن وزارة تشمبرلن أعلنت تحالفها مع حكومة بولونيا المهاجرة في الوقت الذي كانت فيه هذه الحكومة تصرّح أنها في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي .

***

ومن المدهش أن عدداً من أبناء الامبراطورية التي تكوّنت من ضم الأراضي اليها ، أولئك الذين ما فتئوا منذ ٢٠ عاماً يقرفون الاتحاد السوفييتي بكل ما يخطر بالبال من التهم ، قد كشفوا فجأة أنه يخطف الأراضي ويتعامل على نمط الدول الرأسمالية ، وأنهم زعموا أن استرداده لما سلب منه قبلاً إنما هو وليد تواطؤ شامل بينه وبين ألمانيا . فهل هذا حق ؟ لنقرأ البرقية التالية :

« لندن في ١٣ أكتوبر ١٩٣٩ : تنشر الصحف الألمانية اتهامات عن ارتكاب الروس فظائع بالجملة في المناطق التي احتلها السوفييت في شرق بولونيا ، إذ يزعمون أن مئات من القسس قتلوا وأن ألوفاً من المستنيرين وأصحاب الاطيان أهلكوا .

وتقول رسالة من أمستردام أن طبعة جميع الصحف الألمانية تكشف عن العداء لروسيا وأن ازعاج الألمان من توغل الروس نحو الغرب يزداد بسرعة وبصورة جلية واضحة » .

لا ريب أنه قد أصبح من الواضح أن هتلر قد صدم صدمة قوية إذ وجد أول مرّة في حياته قوة لا يرهبه ولا تخشاه بل تستطيع أن ترغمه على أن يتجافى عن قسم من أرباحه ومطامعه . ومع ذلك فقد عرفت الإذاعة الألمانية كيف تستغل الحالة لإطماع مخاوف البريطانيين من أن يكون لميثاق عدم الاعتداء ملحق سري يجعل منه محالفة عسكرية ، فتمادى أعداء الاتحاد السوفييتي في بريطانيا وفرنسا يشنون التهم على رأسه .

الاتحاد السوفييتي يصحح حدوده

الحرب الفنلندية

ولم يلبث الاتحاد السوفييتي دون أن سوّى مسألة دويلات البلطي على نحو سريع جدًّا لألمانيا ، التي وجدت نفسها مكرهةً على أن تجلب رعاياها من هذه الدويلات لتخليها للدولة التي تنافسها في حلبة السياسة وتعاديها في ميدان النظام الاجتماعي .

وقد كان انضمام هذه الدويلات الى الاتحاد السوفييتي سلميًّا شرعيًّا ، إذ ظفرت الأحزاب الشيوعية فيها بكثرة أصوات الناخبين وشكلت حكومات أعلنت النظام الشيوعي بموافقة المجالس النيابية ، ثم قدّمت طلبات بأن تنتظم في سلك الاتحاد السوفييتي فوافق الاتحاد . أنظر البرقية التالية :

« لندن في ٢٢ يوليو ١٩٤٠ : تقول الأنباء الواردة من تالين وكوفناس وريجا إنه قامت مظاهرات حافلة تأييداً للقرارات التي اتخذتها المجالس النيابية في إستونيا ولتوانيا ولاتفيا بالانضمام الى الاتحاد السوفييتي » .

ومع أن الحكومة البريطانية قد أبت قبلُ أن تكفلَ استقلال هذه الدويلات (من الخطر الالماني) ومع أنه لم يكن لها فيها نفوذ يُذكر ، فقد رأى تشمبرلن أن ينتهز الفرصة فيستصفي ما في بلاده من ذهب هذه الدويلات وسفنها . ولم يَحُل بحَلَد الحكومة البريطانية أن تعدل عن هذا الموقف إلاّ منذ ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ إذ قدم سفيرها لدى موسكو سير ستافورد كريبس مقترحات معتدلة بعض الاعتدال ، إلاّ أنه ما كاد يقدمها حتى استصفت الحكومة البريطانية ١٣ سفينة سوفييتية أخرى .

ويتم الاتحاد السوفييتي بعد ذلك شَطر الحكومة الفنلندية نفاطها في أمر حدودهما المشتركة التي فُرضت عليه حين نهكته الحرب والمجاعة ، تلك الحدود التي تهدد ميناءه العظيمة ومركز صناعته الهامّ لينجراد تهديداً خطيراً لقرب ما بينهما . وقد أشار مولوتوف في بيانه الذي ألقاه في ٢٠ مارس ١٩٤٠ أمام مجلس السوفييت الأعلى الى قول التيمس في سنة ١٩١٩

« إذا ألقينا نظرة على المصوّر الجغرافي وجدنا أن خير منفذ الى بتروجراد هو من البحر البلطي وأن أقصر السبل وأيسرها هو من فنلاندا التي لا تبعد تخومها عن عاصمة روسيا إلاّ ٣٠ ميلاً ، فنلاندا هي مفتاح بتروجراد وبتروجراد مفتاح موسكو »

على أن فنلاندا التي تُربي رؤوس الأموال الأجنبية فيها على أربعة أمثال رؤوس الأموال القومية ، والتي لم تكن هي في واقع الأمر أكثر من مستعمرة لشتى الدول المعادية للاتحاد السوفييتي وبخاصة لألمانيا التي يفرض أسطولُها سيطرته على البحر البلطي ، فنلاندا التي استعانت سنة ١٩١٨ بالجيش الألماني على سحق الثورة في بلادها والتي دعت ذلك الجيش الى أن يتخذ من بلادها متبوّأً للزحف على أراضي الاتحاد السوفييتي . والتي أظهرت أنها لا تتورّع عن إعادة تمثيل هذه المأساة كلما تاحت لها الفرصة ، فنلاندا التي ما فتئت تسيّر سياستها الخارجية وفق هوى فلهلم شتراسه [1]

فنلاندا التي أثبتت محاكمةُ بعض الجواسيس أن سفارتها لدى موسكو كانت بريداً لهؤلاء الجواسيس ، تنقل رسائلهم في حقيبتها السياسية الى مراكز الجاسوسية في بلادها ، تلك المراكز التي أنشأتها بعض الدول لتدير منها أعمال التجسس والتخريب الصناعي والاقتصادي في بلاد الاتحاد السوفييتي ، فنلاندا هذه أخذت تعطل وتعطل في المفاوضة حتى نالت من الدول الحامية لها بعض المعونة الحربية وحتى حلّ الشتاء بزمهريره القارس في تلك الأصقاع القطبية التي يتخللها ما لا عداد له من البحيرات الصغيرة والمستنقعات والغابات مما يتعذر معه قيام الحركات الحربية في ذلك الفصل من تلك السنة ذات القُرّ الذي لم تسجّل المراصدُ مثله من قبل . وتقدّمت الحكومة السوفييتية آخر الأمر الى قائد منطقة لينجراد بأن يدمّر خط مَنَرْهيم وأن يحتل برزخ كاريليا والأراضي اللازمة لتأمين سكة حديد مُرمَنْسك . وقد كان يراد بهذا العمل اتخاذ الأهبة للدفاع عن بلادها اذا ما هاجمتها ألمانيا غدراً كما حدث

على أن الميثاق الذي كان الاتحاد السوفييتي قد عقده مع ألمانيا قد يسّر للعناصر الرجعية في الدول الرأسمالية الديمقراطية أن يُبرزوا حملة فنلاندا في صورة عمل مناوىء للحلفاء ، فطفقوا ينفخون في أبواق دعايتهم مظهرين الاتحاد السوفييتي مظهر الدولة المعتدية ،

(١) الشارع الذي فيه وزارة الخارجية الالمانية

مذيعين الأحاديث المستفيضة عن جيش السياسة السوفييتية وتحلل الجيش الأحمر الذي زعموا أنه لا يحسن إدارة الآلات الحربية التي اشتراها وأنه يبيع أسلحته من العدو بثمن معلوم لكل نوع منها .

لقد وجد الرجعيون الماكرون ولاسيما الفرنسيين منهم ، في تلك الحملة فرصة ذهبية أوصلتها العناية الالهية لتحويل سير الحرب من كفاح بينهم وبين ألمانيا الى كفاح بينهم معاً وبين الاتحاد السوفييتي ، فلما انتصر الاتحاد السوفييتي وعقد مع فنلاندا صلحاً كريماً لم يأخذ منها بمقتضاه إلاّ ماكان قد طلبه منها قبلُ ، كان من المدهش حقّاً أن تظل بريطانيا فترة متحفظة في الاعتراف بهذا الصلح ، كما ترى في البرقية التالية :

« لندن في ٢٩ مارس : خطب الرفيق مولوتوف في البرلمان السوفييتي بحضور مثالين وفوروشيلوف فقال : لقد كثرت الأمثلة خلال الخمسة الأشهر الماضية على عداء فرنسا وبريطانيا للاتحاد السوفييتي ... إن حربنا لفنلاندا لم تكن محض كفاح للقوات الفنلاندية إذ أنّا لم نكن نحارب القوات الفنلاندية وحدها . بل كنا نحارب قوات استعمارية مشتركة لطائفة من الدول بينها بريطانيا وفرنسا .

ولقد أعلن مستر تشمبرلن في مجلس العموم يوم ١٩ مارس أسفه الشديد على ما أصابهم من خيبة في منع انتهاء الحرب الفنلاندية ، وبذلك كشف العالم كله عن روحه الاستعماري المحب للسلم »

والواقع أن اهتمام بريطانيا بفنلاندا كل هذا الاهتمام ، مع أنه ليس لها فيها مصالح مباشرة ، مما يحمل على الظن بأنها كانت تفكر حقّاً في استخدامها ذات يوم لأغراض معادية للاتحاد السوفييتي .

وفي ٢٩ مارس ١٩٤٠ تحدث مولوتوف الى مجلس السوفييت الأعلى عن « مسألة بسارابيا التي لم يُقر الاتحاد السوفييتي قط استيلاء رومانيا عليها » .

وقد سلّمت رومانيا مذعنة للإنذار السوفييتي ، فأصلحت الخطأ الذي اقترفته من قبل . وسمح لأبناء بسارابيا المنتشرين في أرجاء رومانيا بالعودة الى موطنهم اذا شاءوا ، فتزاحمت الألوف المؤلفة من العمال الرومانيين أنفسهم على محطات السكك الحديدية للهجرة الى

بسارابيا تخلصاً من عسف الدكتاتورية الرومانية ، فلم يكن من رجال الشرطة الا تشتيتهم بإطلاق الرصاص عليهم .

وهكذا وسع الاتحاد السوفييتي رقعته الى حدوده القديمة على الدانوب ، وأصبح بذلك من الدول التي يحق لها أن تشترك في الاشراف على شؤون هذا النهر المنحدر من أواسط أوربا ، ومن ثمَّ فإنه على رغم أنف الالمان الذين تجاهلوا أنه قد أصبح من دول الدانوب أرسل مندوبه الى المؤتمر وأبى أن يسمح للألمان باتخاذ قاعدة بحرية لهم على البحر الأسود الذي يبعد نحو ألف ميل من شواطىء بلاده والذي تصب فيه أربعة من أكبر أنهار بلاده .

وكان من المدهش أن يثور ثائر حكومة تشمبرلن لاشتراك الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر ، وأن تزعم أنه بهذا الاشتراك قد أخلّ بالحياد .

***

وقد طبقت هذه الإساءات الى دولة العهال تتوالى الى ما قبيل غزو هتلر لليونان ، إذ عمل تشرشل (وقد خلف تشمبرلن في ١٠ مايو ١٩٤٠) على أن يجتذب تركيا وسائر الدول البلقانية والاتحاد السوفييتي الى صف بلاده .

***

كان على رأس الدول البلقانية رجال مشايعون للنازي وان كانوا يؤثرون ألاَّ يشتركوا في الحرب ، وقد حاول الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٤٠ أن يعقد محالفات مع هذه الدول ، فأبت بلغاريا ذلك وتحوَّلت الى شبه مستعمرة لألمانيا ، فوجه اليها الاتحاد السوفييتي إنذاراً شبه رسمي وأعلن ميثاق صداقة مع الحكومة اليوجوسلافية القصيرة العمر ، قلبته الثورة على حكومة البرنس بول المشايعة للنازي ، ولم يكن ذلك الاَّ مظاهرة سوفييتية في وجه تهديد النازي لمصالحهم .

حماقة تشمبرلن ودلاديه

كان الأجدر أن تخفف محنة الحرب من تجني المتحمسين على الاتحاد السوفييتي وهو يحارب من أجل بلادهم أيضاً . لكنهم أخذوا يتمسكون بالميثاق الذي كانوا هم السبب في عقده بقائهم ٥ سنوات متتالية يرفضون فكرة التضامن الجماعي ، وزعموا أن الاتحاد السوفييتي قد غدا تابعاً لألمانيا، وأن الجيش السوفييتي إن هو إلا تحالف مقنّع ، وهذا ما لم يقرفوا به إسبانيا الفاشيّة التي ظفر رجال الحكم فيها بكراسيهم بفضل جيوش هتلر وموسوليني ، ولا السويد التي استمرّت تبيع ألمانيا كل عام ٦ ملايين طن من الصلب الذي يصلح لصنع الأسلحة . وفي الحق أن مسلك وزارة تشمبرلن نحو الاتحاد السوفييتي هو الذي أضفى على حياد الاتحاد السوفييتي ثوب التشيع للمحور . وقد زعموا أن من الإجرام أن يبيع الاتحاد السوفييتي ألمانيا بعض ما كان يفضل من حاجته ، مع أن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد لبثتا حتى الهجوم على بيرل هاربور تبيعان سلعهما الى اليابان حليفة ألمانيا .

لقد كانت سياسة تشمبرلن ودلاديه هذه ممعنة في الحماقة، فقد أوغرت صدور الشيوعيين في بلاد الحلفاء على حكوماتهم بفعلتهم في الأشهر الأولى من الحرب يتراخون في معاونتها، إذ أن حكومتي تشمبرلن ودلاديه كانتا تحاربان الألمان مكرهتين ، ولأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يشفقون أن ينقلب اتجاه سير الحرب فيتناسى الحلفاء ما بينهم وبين المحور ويلتمسون الخلاص من ورطتهم بمؤازرته في محاربة الاتحاد السوفييتي ، وبذلك تكون جهود العمال في المصانع الحربية قد سخرت لتحطيم الاتحاد السوفييتي الذي يمدّه الكثيرون منهم وطناً روحيّاً وضماناً ماديّاً لهم . ولم يكن الشيوعيين مخطئين في هذا التخوف كل الخطأ ، فاذا كان انهيار فرنسا وحلفائها هذا الانهيار السريع العجيب لم يتح لها فرصة للانضمام الى ألمانيا ، فليس معنى ذلك أن رجال المال والحكم فيها لم يكونوا راغبين في هذا الانضمام . واذا كانوا قد حالفوا هتلر على أوطانهم ومهدوا لجيشه اجتياحها كي يقضي على الحركة الشيوعية فيها ويعصمهم من أن تصير ممتلكاتهم ممتلكات قومية فإنهم لم يكونوا ليتردّدوا لحظة في محالفته على الاتحاد السوفييتي حصن الشيوعية العالمية ومبعث الخطر الدائم على ثرواتهم واختياراتهم

سقوط أوربا الغربية

كان التفكير الميونيخي قد أوهن بناء الدول الديمقراطية فما كاد هتلر يأمر جيوشه بمهاجمتها حتى أخذت تتهاوى كما يتهاوى رماد لفيفة التبغ ، دولة تلو أخرى . وتعوّد الناس أن يقرءوا أمثال هذه البرقيات :

وارسو في أول سبتمبر ١٩٣٩ : بدأت الحرب في منتصف الساعة السابعة صباحاً على جميع الحدود الألمانية البولونية وعلى الحدود السلوفاكية أيضاً .

برلين في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٩ : أصدرت القيادة الألمانية العليا بلاغاً رسمياً جاء فيه أن قائد القوات البولونية في وارسو قد عرض تسليم المدينة والحامية .

بروكسل في ١٠ مايو ١٩٤٠ : اجتازت القوات الألمانية الحدود (في بلجيكا وهولاندا)

لندن في ١٥ مايو ١٩٤٠ : أذاع القائد العام الهولاندي منشوراً يدعو فيه الجنود الى وقف القتال .

لندن في ٢٨ مايو ١٩٤٠ : قال مستر تشرشل في مجلس العموم « ليعلم المجلس أن الملك ليوبولد ملك بلجيكا أرسل أمس رسولاً الى القيادة الألمانية طالباً وقف القتال في الميدان البلجيكي ... وكفّ الجيش البلجيكي عن مقاومة الغزو في الساعة الرابعة من صباح اليوم .

باريس في ٩ ابريل ١٩٤٠ : جاء من نيويورك أن محطة اذاعة كولومبيا قطعت برنامجها في الدقيقة المتممة للأربعين بعد منتصف الليل لتذيع أن الألمان اجتاحوا الدانمارك .

لندن في ٩ أبريل ١٩٤٠ : يقول نبأ من استردام إن ملك الدنمارك أصدر بياناً ... دعا فيه الشعب الى الهدوء .

أوسلو في ٩ ابريل ١٩٤٠ : أذاع راديو أوسلو أن القوات الألمانية نزلت الى الموانئ النروجية في الساعة الثالثة من صباح اليوم .

لندن في ١٠ يونيو ١٩٤٠ : أعلن رسمياً أن القوات الفرنسية والبريطانية انسحبت من شمال نروج . وقد وصل ملك نروج ورجال حكومته الى بريطانيا .

برلين في ٥ يونيو ١٩٤٠ . أذاع هر هتلر منشوراً أعلن فيه وقوع هجوم ألماني جديد فقال إن الفرق الألمانية وأسراب الطائرات استأنفت القتال صباح اليوم .

روما في ١٠ يونيو . أعلن راديو روما بعد ظهر اليوم أن كونت تشيانو سلّم التبليغ التالي الى سفير فرنسا « إن جلالة الملك الامبراطور يصرح بأن ايطاليا تعدّ نفسها في حرب مع فرنسا ابتداءً من غدٍ ١١ يونيو .

باريس في ١٣ يونيو : أُلصقت على جدران المنازل في باريس إعلانات جاء فيها أن عاصمة فرنسا مدينة مفتوحة وأن جميع التدابير اتخذت لتأمين سلامة السكان وتموينهم .

لندن في ١٧ يونيو ١٩٤٠ : أذاع مارشال بتان اليوم رسالة الى الأمة الفرنسية قال فيها « وإني أخبركم اليوم بقلب محطم كبير ، أنه لا بدّ من وقف القتال . ولقد خاطبت العدو ليلة أمس لاسأله هل هو مستعد لأن يبحث معي الوسائل التي تضع حدًّا للقتال » .

لندن في ٢٣ يونيو ١٩٤٠ : تقول وكالة الأخبار الرسمية الألمانية أنه أمضيت شروط الهدنة بين فرنسا وألمانيا في غابة كومبيني في الساعة السادسة والدقيقة المتممة للخمسين من مساء أمس .

وهكذا انهارت بولونيا قبل مضي شهر ، وهولندا قبل أسبوع ، والدنمارك قبل ساعة ، من الهجوم عليها ، وفرنسا قبل أسبوعين ، فرنسا التي كانت تعدّ نفسها ويعدّها معظم الناس أصرم دول الأرض وأقواها بأساً ، والتي تحصنت بخط ماجينو أمنع حصون العالم وأكثرها حظًّا من مستحدثات فنون البناء العسكري .

هذه الهزائم الماحقة التي منيت بها مختلف الدول الرأسمالية الديمقراطية في أوربا هي ثمار ما غرسته أيدي تشمبرلن ودلاديه ومن لفّ لفهما . وهنالك خمسة عوامل تآزرت هي وغيرها في إنزال هذه الهزائم بها ، وهي :

١ — مظاهرة الحكومات الديمقراطية لهتلر في استلحاقه النمسا ، وغزوه تشكوسلوفاكيا ، وقد كان ذلك رغبةً منها في حمله على الاتجاه باعتداءاته نحو الشرق .

٢ — تقصير تلك الحكومات في تسليح بلادها اتكالاً على أنه يزعم محاربة أوربا الشيوعية لا أوربا الرأسمالية ، مع أن قراءة كتاب « كفاحي » بتمعن ومراقبة الحوادث

من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٩ يزيان بوضوح أن الحرب كانت آتية على بريطانيا لا ريب فيها .

٣ — تجافي الحكومات الديمقراطية عن سياسة الضمان الجماعي ، مع أن هتلر كان يسعى الى تدويخ العالم طرًّا ، فكان الواجب أن يجتمع العالم لمقاومته .

٤ — مناصرة رأسمالي البلدان الديمقراطية لهتلر لينصرهم على الأحزاب الشيوعية التي كان يطرد نموها في بلادهم .

٥ — فشوّ الاعتقاد في فرنسا وبلجيكا وغيرهما بأن انجلترا تتبع معهم الأساليب التي تتبعها مع مستعمراتها ، وأنها تضحي بآخر جندي من جنودهم في حين هي تضن بأي جندي من جنودها فلا ترسل منهم الى حومات الوغى غير عدد قليل ثم لا تلبث أن تستردهم اذا ما جدّ الجدّ

وهكذا سقطت القارة الأوربية بين مخالب النسر الألماني ، فأما الانجليز فقد قبعوا خلف النفق الإنجليزي (بحر المانش) مطمئنين الى أن هتلر لو أراد أن يغزوهم في عقر دارهم لاحتاج الى ١٠ أطنان من السفن لكل جندي من جنود الغزو ، ولما كان لا يملك هذا القدر من السفن فقد اجتزأ بمحاصرتهم بألغامه وغواصاته ومغازلتهم بطياراته . ودام ما يسمى معركة بريطانيا بضعة أسابيع قتل الألمان فيها ألوفاً من الأطفال والنساء ، فصبرت بريطانيا على هذا العبث ، ولم يكن في وسعها إلاّ أن تصبر ، وتحملت في صمت ما أصابها من خسارة ، عالمة أنها تربح الوقت والوقت يلد العجائب . وقد كانت الأعجوبة أخيراً ، فقد حمل الرأسماليون الألمان ، هتلر على أن يوقّع على الأمر بالانقضاض الغادر على الاتحاد السوفييتي ، فكان ذلك بمثابة التوقيع على أمر بموته وتحطيم طغيانه .

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

وتنفّس الانجليز الصُّعَداء

إذن فقد كان كذباً ما زعمه أعداء الاتحاد السوفييتي من أن الميثاق السوفييتي الألماني ينطوي على نصوص سرية تجعل منه تحالفاً لا محضَ ميثاق بالإمساك عن الاعتداء ، وإذن فقد كان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي قد استعاد ما استعاد من أراضيه المغتصبة ، برضا الألمان وموافقتهم والتواطؤ معهم ، وكان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي

قد عدّل حدوده مدفوعاً بشهوة الفتح والاستعمار، لا تأميناً لبلاده من حرب مبيّتة لم يكن أمرها بخافٍ على فطنته.

وإذ فقد كان كذّاباً ذلك الصيادُ الجريء في الكذب، لندبرج، الذي اعتمد تشمبرلن أيامَ ميونخ على تقريره القائل ـ بضآلة قوة الطيران السوفييتي ـ في مخادعة الشعب البريطاني، وإقناعه بحكمة إبعاد الاتحاد السوفييتي عن مؤتمر المتآمرين، وبتسليم تشكوسلوفاكيا إلى ألمانيا، وقد فضح نفسه حين قال في أول يوليو ١٩٤٠ أي عقب الانقضاض الألماني الغادر على الاتحاد السوفييتي «لقد كنت أوثر مائة مرة أن أرى بلادي في حلف مع ألمانيا !!! على أن أراها تحالف القسوة والإلحاد والبربرية التي في روسيا».

الاستعماريون والفاشيون

في بريطانيا

وقد ألقت الحكومة البريطانية القبض في أول الحرب على سير أوزوالد موزلي الذي كان قد رُشّح لأن يلعب دور كويسلنج في بريطانيا، ثم أطلقته أخيراً. وما تزال بريطانيا تعجّ بفريق من الرأسماليين ذوي النفوذ وأجرائهم، يرتسم حب المال في نفوسهم المريضة في صورة كراهة الاتحاد السوفييتي كراهة تتجاوز كل حد وتحجب كل شيء، تحجب مصلحة الوطن وخير الجنس البشري، فهم يشعرون أنهم رأسماليون أكثر منهم بريطانيين وأمامي، وهم يرَون أن انتصار النازية على بلادهم أهون من صيرورة ألمانيا الى الشيوعية. لذلك ظاهروا الرجعية على التقدم في كل ما شهد العالم من أحداث، فلم تكن ثمة مشكلة من مشاكل الشؤون العالمية لم يكن سلكهم بأزائها مثيراً للخجل والاشمئزاز. وقد أخذوا في صمام وعوائهم يدفعون ببلادهم الى روما، ثم الى ميونخ وبرشتجادن، ثم الى الحرب التي كان من الميسور لهم اتقاؤها بمحالفة الاتحاد السوفييتي قبل سنة ١٩٣٩، أولئك هم مرضى القلوب الذين قفز البهلوان «هس» من طائرته لينزل بين أحضانهم حاملاً رسالة عبد العجل الذهبي في ألمانيا الى عبيده في بريطانيا. ونذكر في طليعة هؤلاء الرجعيين «جماعة السياسة الامبراطورية» Imperial Policy Group التي تكوّنت سنة ١٩٣٣ من بعض أعضاء مجلسي

الفوردات والعموم وغيرهم ، وهي تصدر صحيفة تدعى صحيفة الشؤون العالمية Review of World Affairs كانت هذه الجماعة قبيل نشوب الحرب تطالب بإلغاء المادة الخاصة بالعقوبات من عهد عصبة الأمم .

وفي أغسطس ١٩٣٩ (أي قبل الحرب ببضعة أيام) أنكرت هذه الجماعة إمكان أن تستعر حرب في أوربا ، وقالت « إن الإنتاج البريطاني للطائرات هو على الأرجح أعظم إنتاج من نوعه في العالم » .

وعندما أشفت فرنسا على السقوط طفقت هذه الجماعة تكيل المدح لقيجان وبتان . فلما سقطت فرنسا تلك السقطة المنكرة طفقت الجماعة تكيل القدح لحكومة الجبهة الشعبية التي كانت تحكم فرنسا قبل الحرب . ومما جاء في صحيفتها « ليس ثمة شيوعي بارز إلا وهو معروف جيداً أنه أجير للألمان » .

وفي خريف ١٩٤٠ نشرت تلك الصحيفة في مكان بارز وبعناية ظاهرة عرض هتلر للصالح ونوّهت بقلة خطر القارة الأوربية فيما يتصل بمصالح بريطانيا الهامة . وأبدت رجاءها أن يعامل هتلر البلاد المقهورة بكرم وفطنة .

وظلت بين الفينة والفينة تنصح بإعادة العلاقات الودية مع فيشي وتبدي أسفها على اعتراف بريطانيا بديجول (في ديسمبر ١٩٤٠)

وكانت تقول إن الاتحاد السوفييتي ، وهو يضم نحو ٢٠٠ جنسية ويجمع شتيتاً من اللغات والأديان ، سينهار تحت وقر الضربة الأولى ، وأن الجيش الألماني سيمضي فيه مضيّ السكين في الزبد .

فلما وقف الجيش الأحمر هجوم الألمان في سمولنسك في أغسطس ١٩٤١ زعمت تلك الصحيفة أن الألمان هم الذين وقفوا ذلك الهجوم بمحض اختيارهم ليتفرغوا الى حول لينينجراد وفتح أوكرانيا

وقالت في أكتوبر ١٩٤١ « يجب ألا نعبأ كثيراً بسياسة الأرض المحروقة فإن ما يقال بشأنها مبالغ فيه كثيراً » .

وكتبت في أواخر نوفمبر ١٩٤١ تعزو فترات الوقوف في التقدم الألماني الى « المسائل الفنية المتصلة بالمواصلات » .

ومن قولها : «إن موسكو وروستوف ستسقطان ولا ريب » فلما استعاد الجيش الأحمر روستوف وصدّ الألمان عن موسكو ، وتقهقر هؤلاء في ديسمبر ، تحدثت الصحيفة عن «الثمن الفادح » الذي دفعه الروس ، فلما أطّرد تقدمهم في يناير ، زعمت انهم أحضروا قوات احتياطية من سيبيريا .

وفي يونيو ١٩٤٢ نشرت الصحيفة حديثاً تقلل فيه من شأن محالفة بريطانيا وروسيا . فمن قولها : « قد يطرد الروس من الفولجا والأورال ويفقدون اتصالهم بالقوقاز في الجنوب ويرمنسك وأركنجل في الشمال وفلادفستك في الشرق دون أن يكون في ذلك هزيمة لبريطانيا وأمريكا » واستمرت الصحيفة في أضاليلها التي لم تؤيدها ببرهان ، فقالت « وروسيا — مع كل المزاعم القائلة بعكس ذلك — متوقفة كل التوقف على ما يصلها من الأمداد الخارجية التي لا سبيل اليها الاّ من ثلاث طرق » مهددة بالبديهية . هذا ما زعمته تلك الصحيفة بعد سنة من اشتراك الاتحاد السوفييتي في الحرب ، في وقت كان ينتج فيه من السلاح والعتاد مقادير هائلة ولا يتلقى من الخارج الاّ الشيء الطفيف الذي يبدو أنه وضع قسمًا منه في المخازن ليكون احتياطيًا فلم يكن هو العامل الأول فيما ظفر به الجيش الأحمر من انتصار على هتلر وعلى أوربا الرأسمالية معه . وقد نشرت الصحف في ٢ اكتوبر ١٩٤٣ أي بعد مرور أكثر من عام على ذلك الوقت ، البرقية الآتية :

« لندن في ١٩ أكتوبر : جاء من استانبول أن ضابطاً تركيًا وصل الى تركيا أخيراً قال ما خلاصته : أن ٩٨ في المائة على الأقل من غنائم الحرب التي استولى عليها الألمان من الروس خلال الستة الأشهر الماضية ، من صنع الروس أنفسهم . لذلك يعتقد الضباط الألمان أن الروس لا يستخدمون الأسلحة البريطانية التي حصلوا عليها بموجب قانون الإعارة والتأجير ، بل يحتفظون بها لغرض غير معروف ، ولا يبعد أن يكونوا قد اختزنوها للشتاء » .

وقد دأبت هذه الصحيفة على التهوين من قوة الاتحاد السوفييتي الحربية وعلى إطلاق الشائعة ذات المغزى عنه ، كحديث خرافة القائل بأن الفصائل السوفييتية انما تساق الى الحرب سوقًا ، فقد نشرته على النحو الآتي : « علمنا ان التشكيلات السياسية قد وضعت خلف

الصفوف الروسية ، وقد عهد اليها بأن تعمد الى العمل المباشر في الجنود أو الوحدات التي يبدو عليها أقل رغبة أو عجز أو تردد » .

وتحدثت الصحيفة كذلك عن ١٥٠ ر ٠٠٠ أكراني قد انتظموا في جيش يقاتل الروس تحت قيادة أمير الاي وصفته بأنه من دعاة التحرير الأكراني ويعلم العالم أن الاتحاد السوفييتي هو الدولة الوحيدة التي لم يكن فيها طابور خامس . أجل ، كان في برلين وغيرها من العواصم الأوربية مهاجرون من الحرس الأبيض الأكراني ، وكانوا على اتصال بالأوساط الرجعية في لندن . وقد أريد منهم أن يقاتلوا الاتحاد السوفييتي توفية لما أنفق عليهم من المال ، ولكن هؤلاء كانوا على قلة عددهم ، غير جديرين بأن يسموا أكرانيين . أما الأكرانيون الحقيقيون فقد ناروا الروس في مقاتلة العدو .

وهنالك صحيفة مشئومة أخرى . إلا أنها أوسع انتشاراً من الريفيو ، أخذت تحمل على المعاهدة الانجلو سوفييتية حتى بعد عقدها ، تلك هي « كاتوليك هرالد » ، انظر الى قولها في يناير ١٩٤١ في تعليل بطولة الجنود الحمر في حرب الشتاء « إن الانقياد لسلطة صارمة وللملابسات العنيفة التي تكتنف حملة الشتاء لم يرحب به الروح الروسي على أنه ضرب من التقشف الذي يتناكل حبه للتعذيب » . فهي ترى أن أبناء الاتحاد السوفييتي يستلذون الجوع والشظف والجراح والخسر حتى الموت (قرن البرد) .

وهذه الصحيفة ، التي سكتت عن جرائم ايطاليا وألمانيا في بلادهما وفي أوربا ، وعن دعايتهما الخبيثة في انجلترا ، كانت لا تفتأ تعيد الى الذاكرة حوادث قديمة مزعومة وتتحدث عن : النزاع الذي لا يقبل صلحاً بين المسيحية والشيوعية التي أوحاها اليهودي الألماني كارل ماركس .

وهنالك جماعات وأفراد شتى لم ينفكوا عن تسويء سمعة الاتحاد السوفييتي والتشكيك في مقدرته الحربية ، فأخذوا يشكون من أن الوفدين البريطاني والأمريكي في موسكو لا يمنحان كل ما يحتاجان اليه من معلومات وبيانات ، مستدلين بذلك على أن الاتحاد السوفييتي غير أهل لأن يعوّل عليه . ثم أخذوا يحتجون على ما يسمونه تغلب الجناح الأيسر في الإذاعة البريطانية ، لأن هذه الاذاعة كانت تدعو شعوب أوربا الى الثورة على مستعبديها .

ومن ذلك قول صحيفة إيفننج ستاندرد في ٢٩ مايو ١٩٤٢ « يجب ألاّ نضع جميع بيضنا في السلة الروسية » .

هؤلاء القوم لم يكونوا أعداء للاتحاد السوفييتي وحده ، بل للشعب البريطاني كذلك ، بل هم أعداء الانسانية جمعاء وأعداء المعاني الانسانية السامية جميعاً ، وهم يحاولون أن يفتّوا في عضد الاتحاد السوفييتي قد أظهروا الرأسمالية البريطانية بأنها لا تقل عن الفاشية خطورة ، وبخاصة بعد أن أوشكت الناشية الألمانية أن تختفي من الوجود الى حيث لا رجعة .

خذ مثلاً موقفهم من مسألة الجبهة الثانية فقد ظلوا يعانون في فتح تلك الجبهة تصريحاً وتلميحاً راغبين في ترك الشعب السوفييتي يتحمل وحده عبء الضغط الألماني ، بل لقد طلبوا اليه أن يعلن الحرب على اليابان وأن يمسك عن الزحف الى البلقان . لقد قدّموا اليه من المطالب أكثر مما قدّم اليه من الأسلحة .

نشرت صنداي تيمس في ١٩ يوليو ١٩٤٢ تقول « ليس ثمة شيء في محله مثل فتح الجبهة الثانية إذا — ولكن فقط إذا — أمكن جعلها متسعة النطاق ناجحة ، وإلى أن يكون ذلك ، قد يكون من الممكن حقّاً سحق الروح المعنوي الألماني بغارات تدمير بالجملة » .

يسمع البلاشفة هتلر يسخر علناً من تهديده بجبهة ثانية ويرونه يسحب خيرة قوته الفتية من فرنسا وبلجيكا وغيرهما ليقذفهم بها ، ويعلمون أن بريطانيا قد احتفظت في جزائرها « خوف الغزو الألماني » بملايين من الجند يتلقون منذ قرابة ٥ سنوات أكمل تدريب وأوفر تسليح ، وهم يعلمون أن عهود بريطانيا ومصلحتها الخاصة كانت تحتّم عليها أن تفتح الجبهة الثانية قبل نهاية عام ١٩٤٣ ، ثم يسمعون رجال الطابور الخامس في انجلترا ينصحون بالتريّث في فتحها ، فيتساءلون : اذا كان هذا الجيش العجيب لا يتحرّك لمقاتلة الألمان فمن عسى أن يقاتل ؟ إن لدول المتحالفة ، التفوق التام على الألمان في الجوّ ، وبخاصة بعد أن قضى الاتحاد السوفييتي على معظم أسطولها الجوي ، ولها السيادة في البحر ، وبخاصة بعد أن ألقى الأسطول الايطالي إليها بالمقاليد ، ولها في أوربا المحتلة بالألمان ملايين من الشيوعيين والوطنيين متأهبين لمناصرتها على الفاشيين ، وهذا ما يرهن عليه بدمائهم أولئك

الحسائة من الرجال والنساء الذين سحروا بأرواحهم في ديبيب عند ما حسبوا غارة الكومانتو عليها غزواً حدّيثاً للقارة .

ألا ما أقسى ما سيحكم التاريخ على أولئك الذين يتبعون الهمم في الأوقات العصيبة ، فاذا كان حكم التاريخ لا يهمهم فما أشدّ ما سيعصف بهم حكم الحوادث .

نجاح الاقتصاد السوفييتي

بذل الاتحاد السوفييتي في السنوات الأخيرة جهده في دعم السلام العالمي . ومن البديهي أن يحرص الاتحاد السوفييتي على اجتناب السلام وأن يتكالب أعداؤه على الحرب ، لأنه ينال في السلم ما لا يطمحون الى نيله إلاّ بالحرب ، فهو ناجح في أعماله ، ولديه الكثير من أسباب النجاح ، وهم مخفقون متورّطون في الضيق ، وقد فحصوا جميع السبل وحاولوا ما استطاعوا فلم يوفّقوا لحلّ معقول ولم يرتدوا الى بصيص من نور ، فالهاوية محتومة عليهم ما استمسكوا بطرقهم الاقتصادية العتيقة .

فالإنتاج المرحّد الواسع النطاق الذي ينظّم — على ضوء الاحصاءات — وفق خطط مرسومة لا يراعي فيها إلاّ مصلحة المنتجين ، والذي يتقدّم بأقل الكُلَف تحت قيادة أمهر الإخصائيين ، هذا الإنتاج المنظم في الاتحاد السوفييتي لا يقابله في البلاد المعادية إلاّ فوضى من الإنتاج المتقهقر الكثير الكُلَف لا تراعى فيه حاجة المستهلك بمقدار ما يراعى جشع المنتج .

وكذلك نجد الاتحاد السوفييتي يزيد كل عام من أجور عماله وموظفيه في حين يخفضها أعداؤه ، صراحةً أحياناً وتحت ستار تضخم النقد وخفض سعر العملة في أحيان أخرى .

ولا نجد فيه متعطلاً من الأغنياء ، ولا من الفقراء ، فإن لكل فرد من أفراده حقّ العمل وعليه واجب العمل . والحال على عكس ذلك في أوربا وأمريكا ، إذ قد بلغ عدد المتعطلين فيهما قبل الحرب زُهاء ٣٧ مليوناً كانوا يعانون أشد الآلام ويتجشمون أشق المتاعب .

ولا نجد فيه مكاناً للجهل والأمية ، فإن عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا فيه يُربي على مجموع ما في أوربا الرأسمالية . ولا يعزُب عنا أن عشر فتيات العالم في الجامعات

الألمانية الى نصف ما كانوا عليه في السنوات التي مضت .

ثم هو لا يستثني أبناءه التعصبُ الديني والحزازات الجنسية وفوارق الطبقات وما إلى ذلك ، بل هم يشتغلون جميعاً رجالاً ونساءً ، مسلمين ونصارى ، كأنهم أسرة واحدة تُرفرف عليها السعادة ، على حين تعيجّ البلاد الأخرى بالتباغض والتحاسد والتمرد والانتقاض .

مشروع خمس السنوات الثانية

وقد لخصت صحيفة موسكو التي تصدر بالانجليزية ، في يوم ٦ فبراير ١٩٣٩ نتائج برنامج خمس السنوات الثانية (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٧) ومنه يؤخذ أنه :

بلغ الإنتاج الصناعي الجَماعي (الذي تديره الدولة والهيئات التعاونية) في نهاية سنة ١٩٣٧ — ٨ر٩٩ في المائة من إنتاج الاتحاد السوفييتي كله ، وبلغ الانتاج الزراعي الجماعي ٦ر٩٨ في المائة ، وكان ٩٠ في المائة من جرّارات الحرث وما اليها ، مما أنتجته البلاد في خلال برنامج خَمْس السنوات الثانية . وقد نجح هذا البرنامج نجاحاً لم يكن مقدّراً له ، وذلك على الرغم من المخرّبين الذين ألحقوا بالإنتاج أضراراً بليغة .

وقد ازداد عدد العمال والموظّفين في خلال السنوات الخمس ٦ر١٧ في المائة عما كان ، وارتفع مجموع الأجور ١٥٠ في المائة ، وازداد ما تنفقه الدولة في خدمة الجمهور (التعليم والصحة الخ) من ٤ر٤٠٠ مليون روبل الى ١٤ر٠٠٠ مليون وارتفعت أجور الفلاحين الجَماعيين ٣٥٠ في المائة في ٤ سنوات (من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٧) . وبلغ إنتاج السلع الاستهلاكية ضعفَيْ ، وفي بعضها ٣ أضعاف مثله من سنة ١٩٣٢ ، وازداد عدد التلاميذ في المدارس الأولية والثانوية من ٣ر٢١ مليوناً الى ٤ر٢٩ مليوناً وبلغ عدد طلبة الجامعات والمعاهد العالية ٠٠٠ر٥٥٠ طالب .

ويشير التقرير الى أن الاتحاد السوفييتي قد أصبح مستغنياً في الشؤون الاقتصادية ، وهو يزوّد اقتصاده القومي وقواته الدفاعية بكل ما يلزمهما من الضروريات .

وقد بلغ إنتاج الصناعة في سنة ١٩٣٧ — ٣٧١ في المائة بالقياس على ما كان عليه سنة ١٩٢٩ . أما الصناعة التي تنتج على نطاق واسع فقد بلغت ٧ أمثال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى .

خمس السنوات الثالثة

كان ثمن المنتجات الصناعية في سنة ١٩٣٧ (مقدّرة بحسب أسعار سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) ٩٥٫٥٠٠ مليون من الروبلات. وقد وضع برنامج السنوات الخمس الثالثة على تقدير أن يرتفع هذا الرقم الى ١٨٠٫٠٠٠ مليون أي بزيادة ٨٨ في المائة أي بمعدل ١٣٫٥ في المائة سنويًا

ونذكر على سبيل المثال أنه كان المقدر أن يصل إنتاج المواد الآتية في سنة ١٩٤٢ الى المقادير الآتية :

			أي بزيادة ١٠٣ في المائة عما كان عليه سنة ١٩٣٧
وسائل الإنتاج	١١٢٫٠٠٠	مليون روبل	
سلع للاستهلاك	٦٨٫٠٠٠	» »	٦٩ »
المواد الكيميائية	١٣٫٤٠٠	» »	١٢٧ »
الفحم	٢٣٠	مليون طن متري	٨١ »
(الحديد) الزهر	٢٢	» »	٥٢ »
الصلب	٢٧½	» »	٥٦ »
أشباه الصلب rolled	٢١	» »	٦٢ »
الأسمنت	١٠	» »	٨٣ »
النحاس المكرّر	٣½	» »	٤٤ »
الأحذية الجلدية	٢٣٥	مليون حذاء	٤٣ »
مأكولات محفوظة	١٫٨٠٠	» علبة	١٠٦ »
القوة الكهربائية	٧٥٫٠٠٠	» كيلووطساعة	١٠٦ »

ويُرى من ذلك أن صناعة (بناء) الآلات قد أعطيت من العناية أكثر في الجملة مما أعطيت الصناعة في مجموعها ، فكان المقدر أن يزداد إنتاج الطوربينات في الخمس السنوات الثالثة ٣٨٠ في المائة والمراجل البخارية ٣٦٠ في المائة ، كما أنهم كانوا يعملون على إيجاد « باكو » أخرى لاستغلال حقول زيت الوقود بين نهر الفولجا وجبال الأورال أحسن استغلال مع تزويد البلاد بمخازن للزيت وأنابيب لتوصيله إليها . أما الصناعات الكيميائية فكان المقدّر أن تكون من أعظم الصناعات شأواً ، حتى أصبح من الممكن أن يسمى مشروع السنوات الخمس الثالثة بمشروع السنوات الخمس الكيميائي ، فقد روعي فيه زيادة حمض الكبريتيك ، وحمض النيتريك والأمونيا التركيبية والألياف الاصطناعية زيادة جسيمة .

وكان من المقدّر أن تزداد قيمة الإنتاج الزراعي من ١٩٫٠٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٣٠٫٢٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة ٥٣ في المائة ، وان يصل معدّل المحصول السنوي من الحبوب الى ١١٥ مليون طن (أي نحو ٧٧٥ مليون أردب) بزيادة ٢٧ في المائة عن معدّل السنوات الخمس الثانية ، وأن يبلغ إنتاج السكر ٣٠ مليون طن أي بمعدّل ٢٠ طنًا في الهكتار (والهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع أي ما يقرب من ٢½ فدان) وإنتاج القطن الخام ٣٫٣ مليون طن بمعدّل ١٫٩ طن في الهكتار من الأراضي التي تروى بالآلات (وليس بالمطر) وألياف الكتان ٨٥٠٫٠٠٠ طن بمعدل ٠٫٤٦ طن في الهكتار وأن يزداد عدد الخيل ٣٥ في المائة والأبقار ٤٠ في المائة والخنازير ١٠٠ في المائة والغنم (الضأن والماعز) ١١٠ في المائة ، وأن تكمل إدارة الزراعة على نمط صناعي الى أقصى ما يستطاع وأن تمد خطوط جديدة في السكك الحديدية طولها ١١٫٠٠٠ كيلو متر ، وأن يزدوج ما طوله ٨٠٠٠ كيلو متر من الخطوط المفردة وأن تدار السكك الحديدية إلى حدّ كبير بالكهرباء وأن يكمل مد الخدمة التليفونية الى القرى والمزارع الحكومية ومحطات الجرارات الزراعية وأن يدخل التليفزيون في عدّة مدن كبيرة .

* * *

وكان من المقدّر أن يزاد عدد العمال والموظفين ١٧ في المائة ومعدّل الأجور ٣٥ في المائة وأن يزاد ما تنفقه الدولة على التأمين الاجتماعي والتعليم والصحة وما اليها من الخدمات الاجتماعية من ٣٠٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٥٣٫٠٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة تقرب من ٧٠ في المائة . وإنما يزداد دخل الفلاحين الجماعيين نتيجة لازدياد الانتاج ، لازدياد غلة المحاصيل ونتاج الحيوان .

وكان من المقدّر أن يزداد عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا الى ٦٥٠٫٠٠٠ وأن يزاد عدد دور السينما ٦ أضعاف وأن تزاد المنتديات والمكتبات والمستشفيات وملاعب الرياضة البدنية ، وأن يُبنى من المنازل والمنشآت الصناعية ما مساحته ٣٥ مليون متر مربع ، وأن يزاد حوانيت البيع بالتجزئة المملوكة للدولة والهيئات التعاونية ٢٩ في المائة .

وكان من المقدّر أن يزداد الدخل القومي نحو ٨٠ في المائة .

الاستعداد الدفاعي

هذه صورة مصغرة من النجاح الذي بلغه الاتحاد السوفييتي في شؤونه الاقتصادية . ومنها نرى أنه يسير باطراد الى الأمام ثابت القدم راسخ اليقين منخطياً جميع العقبات ، لا يرغب في أكثر من أن يخلو الى مرافقه المختلفة فينميها ويهذّبها ليكفل المناعة لأبنائه وحفدته . وهو أبعد الدول نزوعاً عن محاربة مخالفيه ، ولا سيما أنه يؤمن بأن نظامهم الاقتصادي عتيق هرم يزدهف الى الموت ازدهافاً ولا مفرّ له من مواجهة نهايته المحتومة في وقت قريب . على أن السلام الذي يبتغيه الاتحاد السوفييتي إنما هو سلام «لامبونيخي» إذ أن السلام عنده شيء آخر غير البله . وهو وإن لم يفتح المدافع بدل الزُبد ، لا يستغني بالزُبد عن المدافع ، وفي الحق أنه كان الدولة الوحيدة التي استطاعت أن تنتج وفراً من الزُبد والمدافع . وهل كان في إمكانه أن يغفل عن التأهب وهو يرى شعوب المحور تجنّد لقتاله وهو يسمع الفاشيين المجذومين يكشحون له بالمداوة ويتهدّدونه في صيحاتهم الهستيرية ويرى مهرّجي نورمبرج[1] يستنفرون سائر قوات العالم الرأسمالي لمؤازرتهم عليه ويسألون الحلفاء أن يتغاضوا عن جرائمهم الاستعمارية ثمناً للحرب الصليبية المنتظرة .

لقد طالما سمع البلاشفة بذاءة الناتسي وأضاعه ، وكانوا يعلمون أن تشمبرلن ومعيّته يبغضونهم ويعملون على هزلهم وتأليب الدول عليهم ، وأنهم إذا كانوا لا يتوانحون معهم توانح الناتسيين فليس ذلك إلاّ لأن أسلوبهم يباين أسلوب الناتسيين . وكان رد الاتحاد السوفييتي على هذه البذاءة وتلك البغضاء أن أمعن في التسلح واقتطع جانباً كبيراً من أمواله وجهوده لتقوية منشآته الدفاعية لكي يكون على الذين تحدثهم أنفسهم بالاعتداء أن يفكروا طويلاً قبل التورّط فيه وأن يكونوا على ثقة أنه « لن يسمح للخنازير أن تدنس حديقته » . فهذا الاستعداد الحربي ليس دليلاً على نية الغزو والاعتداء ، بل هو دليل على الرغبة في التجرد للتقدم السلمي ، وهو كذلك دليل على مدى السموّ الذي ارتفع اليه العلم السوفيتي والفن السوفييتي والصناعة السوفيتية .

(١) ابله الذي كان الناتسيون متهمون فيه مؤتمرهم كل عام

هتلر يتطلع للصخر

ولو أن هتلر كان يعلم آنذاك ما عناه بعد قرنات أوقات لما أقدم على تطلع تلك الصخرة المقدسة

كتاطح صخرةً يوماً ليوهيها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

ولكنه كان يجهل ويتجاهل. وقد أكثر من مخادعة الناس حتى خدع نفسه، فعاود طبعه الأصلي في نشوة انتصاره على الدول الغربية المنفسخة، الى أن يتجه نحو مشرق الشمس، فأعدّ غزوته القادرة بمثل النذالة التي أعدّ بها الايطاليون غزوتهم لبلاد اليونان. واختار يوم ٢٢ يونيو للبدء بها تشبهاً بنابليون وتحدياً له، فما وافت الساعة الرابعة صباحاً حتى فغرت المدافع الالمانية أفواهها واجتازت الدبابات التخوم وطفقت أرسال القوة ذات Luftwaffe تزود في سماء أكرانيا والقريم وتوانيا وهي تطر شآبيب الموت والدمار. فلما بلغت الساعة منتصف السادسة دعا جواف (كونت) فون شولنبرج سفير ألمانيا لدى موسكو مفوض الشؤون الخارجية الرفيق مولوتوف ليدلي اليه بأن دور روسيا قد أتى. وهذه هي الحرب الخاطفة Blitzkrieg.

وبلغت سرعة الغزاة أول الأمر حدًّا أدهش عالماً تعوّد أن يدهش من خوارق أعمالهم واصطنع الالمان في إذاعة انتصاراتهم أسلوباً شعريًّا خياليًّا أشبه بالملاحم الاغريقية وصرّح الكثيرون من رجال النازي بأن تدويخ روسيا لن يستغرق أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ثم أعلنت الدعاوة الالمانية أن عدد القتلى والأسرى من البلاشفة قد ناهز الملايين وأن الجيش الأحمر قد تفانى وأن السلاح الجوي الأحمر قد أصبح لا وجود له.

وقد جرى في حسبان هتلر أن حربه للاتحاد السوفيتي ستجلب تحت لوائه جماعات المهدئين Appeaser من أبناء البلدان الديمقراطية جميعاً، وكأنما هو تاجر ماهر يلف سلعه بأوراق مكتوب عليها «الحرب الصليبية على الشيوعية» آملاً أن يكون لهذه الكلمة السحرية من الأثر ما يفقد الناس آلام المخمصة والسخرة والارهاق ويحجب عن أبصارهم الاختلاسات المتكررة وأسلاك معسكرات الاعتقال ومدافع الجستابو الرشاشة، ولكن ساحر برشتجادن لوّح بعصاه هذه المرة وتمتم بألفاظه السحرية فلم يخرج من ربطته ولا أرنب واحد.

وقد أثار هذه الحرب الفادحة شعوب البلقان على ألمانيا فأعلنت بلغاريا أنها لا تقاتل الاتحاد السوفييتي وأنشأت شعوب يوجوسلافيا ثلاث جمهوريات سوفييتية تشن الحرب على الألمان وصنيعتهم الجديد ميخايلوفتش وتجليهم عن البلاد قرية قرية ، واحتج جوليو مانيو رئيس حزب الفلاحين في رومانيا على استمرار الرومانيين في القتال وراء الدنيستر معلناً أنه يرى في ذلك دلالة على أنهم ليسوا إلا مخالب قطط تلتقط الكستناء للألمان ، وأبت الشعوب المحتلة أن تسلم طوعاً ما عندها من معادن وحاجر الى الألمان وعمد عمالها الى التخريب ونسف المناجم والمصانع والقطارات متشجعين بمقاومة الجيش الأحمر .

الجيش الاحمر يكتسح أعداءه

لقد انتصب أمام الطغيان الهتلري في هذه المرة شعب من نوع آخر ، شعب ذو مرة (عزيمة) يعرف ما يريد ويفعل ما يريد ، شعب لم يتردد ولم يهن ولم تذهب نفسه شعاعاً حين هبط عليه بالمهابط شياطين الموت الذين كانوا في أوربا الغربية ينثرون الذعر والهلع حيثما هبطوا ، ولم تتهافت أعصابه وهنا حين انقضت عليه طائرات ستوكا حتى كانت لتكاد تمس رؤوس أبنائه ، شعب لم تجدِ معه الأسلحة النفسية التي أرهقت الفرنسيين من طبول تُقرع وأناشيد للنصر ترتفع بها العقائر على حين تُرنّق فوقهم الطائرات الصغيرة مسافطة عليهم قنابر صاغرة .

أجل ، تقهقر البلاشفة رَدَحاً من الدهر ، حتى تم تجنيد الشعب الذي يحوي عُشر سكان الأرض في سدس مساحتها ، ولكن هذا التقهقر على خلاف ما شاهدنا في البلدان الأخرى كان خُطة لا هوية . ولم يضنّ البلاشفة بأية تضحية تجول بخلد انسان ، فتقلوا — وهم يتقهقرون — الى المؤخرة كل ما استطاعوا نقله من آلات وعتاد ودمروا كل ما لم يستطيعوا نقله . على أنهم لم يتخلوا عن قطعة من الأرض قبل أن يغطوا ثراها بأشلاء جنود الألمان ودباباتهم . وقد استغلوا تهوّر النازيين وإسرافهم في الأرواح والعتاد فأنزلوا بهم خسائر فادحة . وقد كان إسراف النازيين في غرب أوربا ضرباً من الاقتصاد يبلّغهم المراكز

الحيوية ويسر لهم القضاء على المدافعين أما الاتحاد السوفييتي فقد ضاعف النازيون إسرافهم مئى وثلاث دون أن يتيسر لهم إضعاف الروح المعنوية في البلاشفة . وهكذا دفعوا في ما افتتحوه من الأراضي السوفييتية ثمناً باهظاً من الجند والعتاد والروح المعنوية ، أصبح معه ذلك الافتتاح انتحاراً لا انتصاراً .

وسرعان ما انبثقت الدبابات السوفييتية من تحت الأرض كأنما قد جنبها سحر ساحر ، وبدأت البلاغات النازية تشكو ظهور « جيوش جديدة وعتاد جديد » ، وتحطمت على صخرة المقاومة الشاملة أوامر التقدم مهما يكن من ثمن ، ولم تفتهم الفرق الجديدة الفتية يستبدلون بها الفرق القديمة المرهقة حيناً بعد آخر . وأخذ البلاشفة يكيلون لهم لطمة بلطمة ليست هذه حرباً خاطفة بل هي حرب إبادة طويلة الأمد لقد ماتت الحرب الخاطفة وقبرت في تلوج الاتحاد السوفييتي .

٭٭٭

وانكمأ النازيون يهبطون بعد أن تسنموا الذروة من الانتصار ، وتفانى أملهم في الظفر السريع وأخذوا يتزعون ثوابهم على حين ما فتىء عدوهم الجبار يزداد قوة على قوة ، فقد أراقوا ما عندهم من البترول حيث أرادوا الحصول على البترول ودمّر البلاشفة لهم حقول الزيت الروسانية ومعامل تكريرها في باكو حتى دون أن يُتروا قطاً دباباتهم من آبار باكو . وهبطت منتجات الصناعة الحربية في ألمانيا سنة ١٩٤١ بمقدار ٢٠ الى ٣٠ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وهبط إنتاج الفحم ١٠ الى ١٥ في المائة والصلب ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولم يزل الهبوط يزداد سرعة حتى أوهمك أن ينفد ما ادخر هتلر للحرب من مواد ، فأصبحت دروع الطائرات الألمانية عارية من النيكل ، بل إن أهم أجزاء آلاتها قد أصبحت خالية منه ، ولم يستطع الفيرر أن يحصل على المعادن النافعة التي يحتاج اليها — من (الخردة) كما كان القيصر يفعل في الحرب العالمية الاولى ، إذ أن ألمانيا كانت قد استنفدت خردتها قبل الحرب . أما مزارع أكرانيا الخصبة فقد وجدها مهجورة من الفلاحين خالية من المواشي والآلات التي سبقتهم نحو الشرق فكان ما أقلته القطر الى مطاحن ألمانيا من القمح أقل مما أقلته الى مستشفياتها من الجرحى .

وهكذا غاب فأل هتلر وأخطأ حسابه في كل ناحية ، حربيًا وسياسيًا واجتماعيًا ونفسيًا ، وكان خطؤه عظيماً عظم التأهب السوفييتي لسحق هجومه . وقد قال في خطاب له في قصر الألعاب الرياضية في ٣ اكتوبر يعتذر من كثرة الموتى « لقد أخطأنا خطأً واحداً ، هو أننا لم نعلم مدى جبروت التأهب الروسي لكفاح ألمانيا »

المراجع

1 — . T. Murphy : Russia on the march

2 — D. N. Pritt : Light on Moscow

3 — Victor Gollancy : Russia and ourselves

4 — Barbara Ward : Russian foreign policy

5 — Lucien Zacharoff : "We made a mistake"..

6 — Reginald Bishop : Russia's enemies in Britain.

7 — Maurice Edelman : How Russia prepared

8 — Gaetano Salvemini : Italian fascism

9 — Illustrierte Geschichet des Bürgerkrieges in Russland 1917 - 1921

10 — جريدة صوت الشعب (البروتية) تعليقها على السياسة الخارجية في سنة ١٩٣٩

11 — بيانات الصحف المصرية اليومية

فهرس الكتاب

٣ الثورة البلشفية
٥ الاتحاد السوفييتي يستعجم
١٠ أوربا الديمقراطية تمالىء الفاشية
١٢ حرب الحبشة
١٤ حرب إسبانيا
١٧ مؤتمر ميونخ
٢١ مفاوضة بريطانيا والاتحاد السوفييتي
٢٤ ميثاق عدم الاعتداء
٢٧ غرب اكرانيا لا شرق أوربا
٣٠ الاتحاد السوفييتي يصحح حدوده ، الحرب الفنلندية
٣٤ حلفة تشمبرلن ودلاديه
٣٥ سقوط اوربا الغربية
٣٨ الاستعماريون والفاشيون في بريطانيا
٤٣ نجاح الاقتصاد السوفييتي
٤٤ مشروع خمس السنوات الثانية
٤٥ خمس السنوات الثالثة
٤٧ الاستعداد الدفاعي
٤٨ هتلر يطمح لنصر
٤٩ الجيش الأحمر يكتسح أعداءه
٥١ مراجع الكتاب